6
وادي السيليكون

يوجد تسع مدن في الولايات المتحدة يسكن في كل مدينة منها أكثر من مليون نسمة. أما في الصين فيوجد تسع وأربعون مدينة. يمكنك أن تكون مسافراً عبر الصين، وتصل إلى مدينة تساوي حجم مدينة هيوستن مرتين. وتظن وتقول في نفسك، أنا لم أسمع ولا مجرد سماع قط بهذا المكان. تلك هي الكيفية التي تظهر بها الأمور بالنسبة إلى الزوار الأجانب لمدينة هوفاي (وسكانها 4.2 من الملايين). كنت أسافر إلى الصين طوال عشرين سنة تقريباً وكنت قد زرت المدينة هنا لأول مرة في العام الفائت فقط. ولم يكن يوجد في الحقيقة أي سبب قط للمجيء. ولكن، ومثلما هو الحال في العديد جداً من المدن في الصين، تحاول الحكومة المحلية أن تغير ذلك. بعد قرون من فقر المناطق الداخلية، تفتح مدينة هوفاي، مثل كل المدن الصينية، للعالم

مثلما يتغلغل صباغ قَطَر على قطعة قماش، يتغلغل الآن مستوى معتدل من الثروة إلى المدن الداخلية من البلاد. وكان الطريق 312 جزءاً من التغيير، وهو يخفض تخفيضاً مؤثراً زمن الرحلة للناس وللسلع الذاهبة إلى نانجينغ، وشنغهاي، والساحل. ومما ساعد على هذه النتيجة أيضاً انتشار المصانع والشركات في المناطق الداخلية من البلاد بحثاً عن تكاليف أخفض، مثلما ساعدت أيضاً التحويلات المرسلة من المهاجرين العاملين بالقرب من الساحل. وهذه الثروة المتنامية بدورها تغير بعض أنماط هجرة المناطق الداخلية. وما زالت شنغهاي هي الأرض الموعودة بالنسبة إلى الفلاحين المهاجرين، ولكن هناك الآن المزيد من الأراضي الموعودة المصغرة في أنحاء البلاد، وفي عواصم المقاطعات مثل هوفاي، ومثل مدن أبعد في المناطق الداخلية، مثل شيان ولانجو، التي يسافر إليها الناس ليبحثوا عن عمل، وذلك ببساطة لأن العمل الآن متوافر. ولأول مرة، تقول بعض المصانع الموجودة على الساحل إنها تعاني من نقص العمال، وأحد الأسباب لذلك هو أن الناس الآن يستطيعون إيجاد أعمال لهم في الصين الداخلية (على الرغم من أنها أعمال لا يدفع لها أجور جيدة جداً).

هذا الظهور للمدن الداخلية هو في الواقع إعادة ظهور. فالأرياف كانت دائماً فقيرة، ولكن المدن الصينية طوال قرون كانت أكثر ازدهاراً إلى حد بعيد من نظيراتها في أماكن أخرى في العالم.

والحكومة تعمل كل شيء لتشجيع هذه المعاودة للظهور. وفي السنوات الحديثة أدخلت الحكومة مفهوماً كونفوشيوسياً قديماً إلى دعايتها. واللفظة التي تستخدمها هي «الرفاهية المعتدلة». ومن العسير أن نتخيل عشرات الآلاف من الحراس الحمر وهم يمشون عبر ميدان تيانانمين ويتغنون باسم «الرفاهية المعتدلة». ولكن ذلك هو لب الموضوع. فالشعارات الثورية القديمة ميتة. والشعارات الجديدة التي تروج للرفاهية المعتدلة موجودة في كل مكان، وهي علامة أخرى على تحول الحزب الشيوعي وانقلابه من المضطهد للبورجوازية إلى المروج الشديد الحماسة لها. ويقول الاقتصاديون يجب علينا أن لا نشير إلى ما يجري في الصين بوصفه «رأسمالية» وإن التعبير المناسب لها بشكل أفضل هو «الشركاتية اللينينية (Leninist corporation). وهم يقولون، إنه ليس اقتصاد سوق حقيقي، ولكنه مازال موجهاً توجيهاً كبيراً جداً ومداراً من قبل الحزب الشيوعي، وعلى أي الطريقين، فالحزب في هوفاي، مثلما هو في كل أنحاء الصين، يعرف أن اقتصاد السوق، مهما يكن فيه الكثير من العمل الجاري، يستطيع أن يكون خاصاً للحزب. ولكن الحزب يعرف أيضاً أن تفاوتات اقتصاد السوق البازغ يحتمل أن تكون سقوطاً للحزب أيضاً.

إن موت مبدأ القيام بالرعاية الطبية، وبالتعليم، وبالتوظيف من المهد إلى اللحد قد خلق مجموعات ضخمة من الخاسرين ومن الرابحين كذلك في صين عصر الإصلاح، من الفلاحين الذين قابلتهم قبل قليل إلى العمال المفصولين عن العمل في مصانع مدن الصين. وهكذا فإلى جانب الحملة التي تروج «الرفاهية المعتدلة». أُطلقت حملة أخرى تروج لشيء يمكن ترجمته إلى «الانسجام». فاللافتات التي تشجع المواطنين على بناء مجتمع أكثر انسجاماً قد نشأت في كل أنحاء هوفاي ومعظم المدن الصينية الأخرى، وهي موجودة أحياناً على بعد ياردات فقط من اللافتات التي تروج «الرفاهية المعتدلة». وقد ضاع التناقض في أهدافهما على ما يظهر في دوامة التطور.

تقع هوفاي على بعد 250 ميلاً فقط غرب شنغهاي، وهي أول مدينة من أي حجم تصل إليها حين تدخل قلب الأرض الداخلية الريفية من الصين. وفي الثلاثينيات من 1930 كان سكانها ثلاثين ألف نسمة فقط، ولكن في العام 1949 جعل منها الحزب الشيوعي عاصمة لمقاطعة آنهوي. وصارت المدينة جزءاً من المحاولة الشيوعية للتصنيع بسرعة عالية في أواخر الخمسينيات من 1950، وهو ما تركها بشعور صناعي ليس جذاباً جداً.

وفي العام 1986 اكتسبت هوفاي درجة من سوء السمعة بوصفها واحداً من أول مواقع اضطرابات الطلاب بعد ماو. والمظاهرات التي قامت في سبيل المزيد من التغيير السياسي سوف تنتشر إلى المدن الأخرى قبل أن يتم إيقافها (سلمياً) من قبل الحزب، ولكنها كانت بادرة تنذر باحتجاجات أكبر من سابقتها في العام 1989، التي قمعتها الحكومة قمعاً وحشياً مع فقد مئات الأرواح. وكانت مظاهرات العام 1986 قد لقيت التشجيع من نائب رئيس أعلى مقعد تعليمي، في جامعة العلوم والتقانة، وهو عالم فضاء فيزيائي وليبرالي سياسي معروف جداً اسمه فانغ ليجي. وبعد سحق احتجاجات تيانانمين بعد ثلاث سنوات، التجأ فانغ إلى سفارة الولايات المتحدة الأمريكية في بكين واكتسب في نهاية المطاف حق اللجوء في أمريكا.

لا الإصلاح السياسي ولا الاحتجاج السياسي رجع على جدول الأعمال، في هوفاي أو في أي مكان آخر، منذ حولت الصين تركيزها إلى الاقتصاد. هوفاي كانت تقليدياً بعيدة جداً عن معدل سرعة التغيير فلم تستفد مجرد الفائدة من ازدهار التسعينيات من 1990. قال لي أحد معارفي وكان قد عاش هناك مدرساً في مطالع التسعينيات، «يا لها من مزبلة». وقال صديق آخر، كان قد سافر هناك ليتبنى ابنة صغيرة في 1996: « مكان رهيب».

الآن، تبدو الأشياء، مع ذلك، أفضل قليلاً. فبعد رحلة ثلاث ساعات من نانجينغ عبر بحر من الفقر الريفي، تشعر هناك وكأنك قد تسلقت لترقى على جزيرة أخرى من الرفاهية المعتدلة حين تصل إلى هوفاي. العملاق البريطاني يونيليفر قد نقل حديثاً كل قاعدته الصناعية إلى هنا من شنغهاي. وتحاول حكومة المدينة أن تقنع

شركات أخرى لتفعل الشيء نفسه. وإيقاع الحياة يتزايد في سرعته. وهناك مواقع بناء في كل المكان، والمتاجر المليئة بكل أنواع السلع الاستهلاكية، وبعض المواطنين من ذوي اليسار بدؤوا بشراء سيارات. ومن دون شك فإن أكثرهم طموحاً هو حكومة هوفاي، وهي تقول إنها تحاول أن تحول هذه المدينة المجهولة في وسط الصين إلى مركز كبير لشركات التقانة العالية الكونية.

في اليوم التالي، قابلني في بهو الفندق الذي أنزل فيه السيد وانغ والآنسة جو من مكتب الشؤون الخارجية من حكومة هوفاي.

من البداية حتى هوفاي، كنت أمر تحت الرادار بشكل كامل بقدر ما يكون المسؤولون الرسميون الصينيون معنيين. فأنا لم أنشد أحداً ولا أزعجني المسؤولون من أي نوع. ومن السهل جداً أن تفعل ذلك في الصين في هذه الأيام. انطلق فقط، وتحدث مع من تريد طوال الطريق. ولكن هنا في هوفاي، ولأنني آمل أن أزور، على كل حال، مشروعاً حكومياً عالياً في تعرضه تحت نظر الجمهور، فقد اتصلت بالحكومة مقدماً.

كل مقاطعة، وكل مدينة، وكل بلدة في الصين تملك ما يدعى مكتب الشؤون الخارجية، ويفترض بالزوار، وخصوصاً الصحافيون الأجانب، أن يتصلوا بالمكتب إذا زاروا المكان، على الرغم من أن قلة من الناس تفعل في أي وقت. وأنا أسافر في كل أنحاء الصين في كل الوقت وأتحادث مع كل أنواع الناس ونادراً ما اتصلت مع مكتب الشؤون الخارجية ما لم أكن أريد إجراء مقابلات رسمية. وليس هناك أي ضمان في أنك لن تقع في مشكلات إذا أمسكت بك الشرطة، ولكن قفص العصفور بالنسبة إلى المراسلين الأجانب صار أيضاً قفصاً كبيراً.

السيد وانغ، أو رئيس القسم وانغ مثلما أنا حريص على تسميته، ربما كان في أواخر الأربعينيات ولا يتحدث الإنجليزية. وهو رجل دمث، وليس مثل أنواع الناس الذين ينافقون، ويندفعون ممن يشيع وجودهم كثيراً في التسلسل الهرمي في الحكومة الصينية. والآنسة جو ربما تكون في أواخر العشرينيات من عمرها وهي تتحدث الإنجليزية بشكل جيد جداً. وكلاهما نموذج لمسؤولي مكتب العلاقات الخارجية في عاصمة مقاطعة، وهما حذران قليلاً فيما يقولان ولكنهما ودودان ومساعدان.

وكلاهما يدعواني باحترام الصحافي تشي، باستخدام اسم العائلة الصيني الذي أعطاني إياه منذ زمن طويل أول أستاذ صيني لي. الأجانب يمتلكون هويات عديدة في الصين. فأنا أدعى باحترام لاو تشي (تشي العجوز) من قبل أصدقائي الصينيين الذين هم أصغر مني سناً. وأنا أدعى أيضاً بمحبة شياو تشي (الصغير تشي) من قبل الأصدقاء الصينيين الذين هم أكبر مني سناً. وأنا أدعى تشي ديشيونغ (الأخ تشي) من قبل أصدقائي داخل الكنيسة الصينية. والكلمة الصينية المقابلة «للصحفي تشي» تعني أنه «هو الشخص الذي يدون الأشياء واسمه هو تشي». وهو الاسم الشخصي الذي أحبه كثيراً جداً.

رئيس القسم وانغ كان قد أعد دليلاً للرحلة ليبين للزوار كيف ستتولى مدينته السيطرة على العالم تقانياً. فالتقانة هي الدين الجديد للصين الحضرية، ولم يبق ذلك موجوداً في المدن الساحلية فقط. وبعد أن أهدروا عقوداً من الزمان، بل قروناً تقريباً، وهم يتغلبون على الاعتراضات التقليدية ضد التقدم، وأهدروا بعدئذ ثلاثين عاما وهم يهتزون وفق لحن الثورة الماوية، بعد كل ذلك وضع الصينيون أخيراً أنفسهم في الموقع الذي يستطيعون منه أن يطوروا التقانة وأن يبدؤوا بالسيطرة على العالم. ففي كل مكان ترى لافتات تقول: أحيوا الأمة من خلال العلم والتعليم.

وسواء أكان السفر في الفضاء، أو برمجيات الحاسوب، أو البحث الطبي، فإن التقدم العلمي هو الوسواس الوطني. وكثيرون من العلماء الذين ولدوا في الصين عادوا من الخارج ليتابعوا بحوثهم، لا انطلاقاً من الوطنية فقط بل لأن تسهيلات البحث الصينية صارت في موقع أعظم تقدماً. وان إعدام الثورة الشيوعية للتفكير التقليدي أيضاً ناسب مدخلاً حراً بشكل مدهش لمجالات مثل البحث الطبي، فالعلماء يستطيعون أن يجربوا الأشياء التي تعد ممنوعة في الغرب بموجب القوانين الأخلاقية الصارمة. (وأنا لن أفاجأ إذا كان أول مخلوق بشري مستنسخ قد صار موجوداً من قبل الآن ومستتراً على طول ضفاف نهر يانغسي).

ومركز نشاط هوفاي، مع ذلك، ليس شيئاً مثيراً للجدل إلى حدٍ بعيد. فالمدينة تهدف ببساطة إلى أن تصير مركزاً لشركات التقانة العالية. ويصطحبني السيد وانغ

والآنسة جو أولاً إلى أرض منطقة صناعية تقدم فيها حكومة المدينة حيزاً مجانياً للمكاتب لشركات التقانة العالية في المرحلة الأولى من عملياتها، ويوجد الآن من هذه الشركات العشرات. ونزور شركة تطور برنامجاً للتعرف على الصوت، وشركة أخرى تعمل على موضوع عقد المؤتمرات على الخط المباشر. والشركة الثانية كانت قد بدأت عملياتها في الولايات المتحدة على يد طالب متخرج صيني. وحين عاد إلى الصين، لم يختر شنغهاي، ولم يختر بكين، بل اختار هوفاي موقعاً لمقر قيادة الشركة الصينية. فالتكاليف أقل بكثير، ويوجد كثيرون من المهندسين المدربين تدريباً جيداً متخرجين من جامعة العلوم والتقانة ومن الجامعات الأخرى هنا، والإنترنت تعني أن من غير المهم أين يجلسون بالفعل. المبنى لامع وحديث، والمكتب المرتب من الداخل بشكل مفتوح بلا حواجز يعج بالهمهمات الهادئة مع الصوت اللطيف المنبعث من مهندسي البرمجيات الذين يملؤون الغرفة.

وأنا لست تقنياً إليكترونياً متخصصاً مهما اشتط بي الخيال. وفي الحقيقة، إن جل ما أستطيع أن أفعله هو أن أدخل على الخط المباشر في الإنترنت وأدقق في بريدي الإلكتروني. ولكني حين مشيت عبر ذلك المكتب في بلدة في الصين الوسطى لم يسمع بها أحد في الغرب، تأثرت بالشعور القلق الذي يعتريك أحياناً في الصين. وشعرت للحظة أني كنت أستطيع أن أرى المستقبل. هاهنا ثلاث مئة مهندس برمجيات، ويحتمل أن يكونوا كلهم على نفس الدرجة من الامتياز مثل نظرائهم في الولايات المتحدة، ولكنهم ربما كانوا يكسبون أقل منهم بعشرين أو ثلاثين مرة.

وهذا لا يعني أن نقول إن هوفاي سوف تحقق أحلامها فوراً. مازال لديها طريق طويل، طويل لتسيره، والتفكير بالتمني والهواء الحار، أو الكلام الفارغ المبالغ فيه، مرتبطان بمقادير متساوية بجهود الحكومة في تحويلها إلى مدينة بنغالور جديدة. ولكن الأشياء هنا تتحرك بخطى مدهشة، وطموحات بعض هذه الحكومات في الإقليمية لا تكاد تصدق.

ويقترح رئيس القسم وانغ أنني لم أر أي شيء حتى الآن، وبعد غداء قصير، نتجه خارجين إلى الجانب الغربي من هوفاي. على حافة المدينة، وعلى الطريق 312 تماماً

وهو يدرج خارجاً من المدينة، يوجد تطور يعرف اسم مدينة العلم، وهي مثال آخر على الاستثمار الضخم من الدولة. فالموقع سوف يغطي في نهاية الأمر عشرين ميلاً مربعاً، ويأمل المخططون له أنه سيصير منطقة من أكبر مناطق التقانة العالية في الصين، ويجتذب الشركات الصينية والدولية. وجزء من مساحة المنطقة التي جرى تنظيفها بالجرافات لتفسح الطريق لأول المباني كانت سابقاً مزرعة تربية حيوانات تملكها الحكومة، ولكنها الآن سوف تحتضن شركات التقانة العالية، لا صغار الحيوانات. وجميعنا ضحكنا ضحكة جيدة من ذلك.

وهنا أحصل على عرض كامل باستخدام برنامج باور بوينت، مع وجود سلسلة باهرة من الخرائط، والأرقام، والخطط. ويقول مدير شاب بأسلوب مناسب اسمه جن روي: «نحن نريد هوفاي أن تصير وادي السيليكون في الصين، من خلال العمل المجتهد طوال الخمس عشرة سنة القادمة، ونحن نعتقد أننا نستطيع أن نفعل ذلك. والمشروع قد اجتذب من قبلُ بليوني دولار من استثمار الحكومة».

ولست مازحاً. هذا هو الرقم الذي يعطيه. وهو يعطيه بالدولارات الأمريكية. ولديه مزيد من الأرقام الكثيرة ـ الكثير جداً من الإحصاءات، وأفعال التفضيل، في الحقيقة، إلى الدرجة التي أجد معها صعوبة في حفظها.

«مرحلة البدء بالعمليات من 2004 إلى 2007». ويطفئ جن روي عرض الباور بوينت. «ومرحلة التنفيذ من 2007 إلى 2010. ومن 2011 إلى 2012 هي مرحلة التحسين والاستكمال».

ودونت التواريخ في دفتر ملاحظاتي وأنا أتعجب إلى أي مدى سيكون من المحتمل أن يتم الوفاء بها. ومن المؤكد أن الحكومة الصينية، حين تضع في ذهنها مشروعاً إنشائياً، فإنها تستطيع عموماً أن تنجزه مع توفير بعض الوقت. ولكن هناك أيضاً الكثير من البناء المبني على المطمح الإنساني في الصين، نوع من مدخل «ابنها وسوف يأتون» في مشروعات مثل هذا وفي الموقف نحو إنشاء نظام الأمة غير العادي من الطرق الجديدة. هناك الكثير من الدخان والمرايا، أو أوهام التسويق. ابنِ مباني لامعة كافية، وارْجُ أنها سوف تعكس إحداها الأخرى وتجعل المكان يبدو مثل وادي السيليكون.

هل ستملأ هوفاي مبانيها؟ أم هي قد أفرطت في البناء، مثل مدن أخرى أفرطت في بناء الأسواق ومباني المكاتب في أعلى البلاد وأدناها؟ هل ستريد الشركات الدولية أن تأتي هنا؟ هل مهارات مهندسي البرمجيات الصينية فعلياً على نفس مستوى الجودة لنظرائهم الأمريكيين؟ هل هناك إضافة إليها أكثر من مجرد آخر الأجهزة؟ ماذا عن البرمجيات في أذهان الناس؟ هل تستطيع أن تصير لاعباً في «اقتصاد المعرفة» إذا أنت حددت التعليم وتدفق المعرفة؟

أعتقد أن هذه الأسئلة مهمة لا بالنسبة إلى هوفاي فقط بل بالنسبة إلى كل البلاد. فإذا كانت الحكومة تستطيع أن تحسن حياة الناس الريفيين في أثناء الوقت الذي تدعم فيه النمو الاقتصادي للمدن الداخلية مثل هوفاي، فهي قد تكون قادرة على المحافظة على الصين في مَحركٍ صاعد. ولكن الأسئلة تلمس ما هو أكثر من النمو الاقتصادي. إنها حول الخلق والتجديد وحركة الفكر التي تغذيها، وهي ما لن تسمح به الصين في الوقت الحاضر. إنها تستطيع أن تبني ناطحات السحاب التي تحبها، ولكنها إذا أرادت أن تعبر من كونها قوة اقتصادية تنمو إلى كونها قوة عظيمة خلاقة، فسيكون عليها أن تسمح بشيء أكثر من مجرد إنشاء مبانٍ جديدة لامعة.

الجري الذي أقوم به قبل العشاء يأخذني إلى داخل مركز هوفاي تماماً، وهو مركز ممتع على نحو مدهش. وهناك نهر ضيق ينساب عبره، وبحيرات صغيرة وعدد من المتنزّهات الجذابة. وكما هي العادة فأنا الوحيد الذي أقوم بالتمرين. ربما يكون ذلك بسبب الحرارة فقط، ولكن بالنسبة إلى بلاد تصل بانتظام إلى مرتبة في صف الثلاثة الذين يأتون في قمة الرابحين للميداليات في الألعاب الأولمبية، كان يبدو هناك دائماً وجود نشاطات رياضية عفوية قليلة ثمينة تجري في الصين. ويقول المسؤولون عن الرياضة إنهم يأملون أن يسيطروا على العديد من التخصصات الأولمبية الأخرى في المستقبل. لقد أعلنوا، على سبيل المثال، أنهم يدفعون ليصيروا رابحي الميداليات الذهبية في ميدان هوكي النساء. ولا يخامرني شك في أنهم سوف يربحون الذهب في كل لعبة ميدان هوكي النساء من الآن حتى تأتي مملكة اليوم الآخر، ولكنني لم أقابل أي شخص صيني واحد يعرف مجرد معرفة ما هو هوكي الميدان. الألعاب الرياضية في

الصين، مثل الرأسمالية، هي نشاطات تقودها الحكومة على نحو ملحوظ. في المتنزَّه، جريت من جانب مجموعة من الجدّات يقمن بتنويعة من «هزي ردفك خطوتين» على وقع أصوات يبثها مسجل محمول للأقراص المدمجة، ولكن ذلك يلخص الحالة.

بالنسبة إلى العشاء، كنت قد خططت أن أجرب المطعم الدوار على سطح فندق هوليداي إن، ولكنني اكتشفت أن الفندق يضم أيضاً مطعماً هندياً. وكما يتوقع المرء بالتأكيد، هناك مدير هندي عند الباب والعديد من كبار الطهاة الهنود الذين يصنعون الخبز التنوري خلف نافذة زجاجية كبيرة في المطبخ. وألوِّح لهم، وهم يردون بابتسامة عريضة. كان المطعم نصف ممتلئ تقريباً، وحين كان المدير يوصلني إلى طاولة، أسأله عن مدى قبول صحن قطع الدجاج المبهر المطبوخ بصلصة الكاري عند مرتادي المطعم من الصين الوسطى.

«نعم، الشعب الصيني صار متعوداً على الطعام الهندي».

أدعوه ليجلس معي في أثناء انتظاري للطعام.

وأسأله: «ما رأيك بالصين؟»

ويبتسم ويقول: «إنها تتطور تطوراً سريعاً جداً».

«أسرع من الهند؟»

ويقول: «أوه نعم».

«ولكن هل تعتقد أنها تحسّن حياة الشعب هنا بأكثر مما تحسّن الحكومة الهندية حياة الهنود؟»

«حسناً، في الهند هناك ديمقراطية». يقول ذلك، وهو يضع إصبعه على النقطة المقصودة من سؤالي.

وأسأله: «ولكن هل ذلك يجعل كون المرء فلاحاً هندياً أفضل من أن يكون فلاحاً صينياً؟»

ويبتسم ثانية «أنا أعتقد أن الديمقراطية مهمة».

وأضغط عليه: «ولكن هل الديمقراطية الهندية تساعد على رفع مستوى معيشة الشعب في مستوى قاع المجتمع؟»

ويقول بلهجة دفاعية: «نعم، أنا أعتقد ذلك»

وهو لا يريد في الواقع أن يدخل في النقاش، وهو شيء مخجل، لأن هذا النقاش هو الذين أريد فعلاً أن أناقشه، وخصوصاً هنا في هوفاي، المكان الذي يوضع فيه النموذج الذي تقوده الحكومة الصينية للعرض بشكل كبير جداً. الصين والهند كلاهما بلدان ضخمان، وسكان كل منهما أكثر من بليون نسمة، يحاولان انتشال عشرات الملايين من المزارعين من الفقر. هل النموذج الأكثر تنظيماً، والمدعوم من الحكومة، والذي يسير بمعدل نمو سريع جداً، نموذج صين الحزب الواحد، أفضل للبلاد النامية من نموذج الهند الديمقراطي الفوضوي قليلاً، نموذج دعه يعمل، وبمعدل نمو أبطأ؟

يبدو أن معظم الغربيين يصطفون إلى جانب الهند، وأنا أعتقد أن ذلك ببساطة بسبب تلك الكلمة «الديمقراطية». ومن المؤكد، أن الديمقراطية وفرت زواجر وضوابط في الهند منعت الحملات السياسية والاقتصادية المجنونة التي دمرت الصين في الخمسينيات من 1950 وفي الستينيات 1960. وتلك في حد ذاتها كانت كافية لكسب المناقشة لصالح الهند في بعض المناطق في أثناء تلك السنوات.

ولكنني أشعر وكأن كلمة ديمقراطية تقودنا إلى أن نعزو ميزات معينة إلى الهند هي غير موجودة بالضرورة. وبشكل مشابه، فإن كلمة ديكتاتورية تقودنا إلى أن نعزو أشياء رهيبة إلى الصين هي غير موجودة هناك بالضرورة. نحن نحكم بسبب الصور في أذهاننا وليس بسبب الحقيقة الواقعة على الأرض.

إذا كان وجود الديمقراطية في الهند عنى أنه كان يوجد هناك ديمقراطية حقيقية، مع كل الزواجر والضوابط، وتخفيض الفساد، وحرية الاختيار، وتقديم الخدمات الحاسمة، مثل التعليم والرعاية الصحية، فسيكون من المحتمل آنئذٍ أن الهند مازالت تكسب المناقشة. ولكن الهند، مثل الصين، فاسدة فساداً ضخماً، على الرغم من أن

الفلاحين الهنود يستطيعون المساعدة في طرد أعلى القادة إلى خارج السلطة، ويبدو أن القادة الجدد الذين يدخلون في السلطة في كل مرة يخفقون عموماً في انتشال الملايين من الفقر.

هناك تحسينات مؤكدة في الحياة تذهب إلى ما بعد النظام السياسي، مثل الفرصة المتمثلة في أن طفلك سيعيش ليرى سن الرشد، واحتمال أن ابنتك سوف تحصل على التعليم، واحتمال أنك أنت نفسك تستطيع أن تجد عملاً لا يشمل الخوض حتى ركبتيك في حقول شتلات الرز طوال بقية عمرك. والإحصاءات الصينية غير موثوقة بشكل سيئ السمعة، ولكن في العديد من هذه المجالات، ولو مع السماح بنسبة مبالغة من 10 - 20 بالمائة، فإن الصين مازالت تسجل معدلات أفضل من الهند.

فأنت في الهند معرّض لاحتمال أكبر مرتين لفقد طفل قبل سن الخامسة من عمره. إذا كنت هندياً، فهناك فقط 60 بالمائة من الفرصة بأنك تستطيع أن تقرأ. إذا كنت صينياً، فالفرصة هي 93 بالمائة. إذا كانت المرأة بالغة في الهند، تنزل نسبتها إلى 45 بالمائة، في حين أن النسبة في الصين، وفقاً لإحصاءات الحكومة الصينية، 87 بالمائة للنساء البالغات اللاتي يستطعن القراءة. والدخل لكل فرد هو في الصين ضعف ما هو في الهند. والطول المتوقع للحياة في الهند أقل من الصين (ثلاث وستون سنة إلى سبعين). وتستمر القائمة.

في الصين في الأيام الأولى من الإصلاح في الثمانينيات من 1980، كان من عادة الناس أن يقولوا: «لتصير غنياً، ابن طريقاً أولاً»، والتوجيه، على الرغم من أنه تبسيط مفرط فج، يمتلك الكثير من الحقيقة فيه، مثلما أجد أنا ذلك على طول كل الطريق 312. إن البنية التحتية في الصين متقدمة عقوداً عن بنية الهند التحتية. في العام 2005، استثمرت الصين سبعة دولارات في البنية التحتية في مقابل كل دولار تصرفه الهند.

باختصار، قامت الحكومة الصينية حتى الآن، في بعض مجالات الحياة، وبشكل لا ينكر بتقديم الخدمات الأساسية والتموينات بطريقة أكثر اكتمالاً من الحكومة الهندية. (هامش واحد قصير، لا يكاد يكون له قيمة إلى جانب مناقشة الحياة أو

الموت لوفيات الأطفال: ينطبق النموذج أيضاً على الألعاب الرياضية. برنامج الألعاب الرياضية الذي قادته حكومة الصين حقق ثلاثاً وستين ميدالية في أولمبياد أثينا، اثنتان وثلاثون منها ذهبية. والهند ربحت ميدالية واحدة في أثينا، وفضية في الرماية).

هناك الآن، مع ذلك، سؤالان كبيران للصين. الأول: هل كل ذلك ينهار؟ الفلاحون من أمثال وو فاليانغ، الذي كنت قد تحدثت معه في اليوم الفائت، يقولون إنه لكذلك، إن الأسماء القديمة المائة الآن يجب عليهم أن يدفعوا من أجل الرعاية الطبية والتعليم، وأن الحكومة قد أوقفت توفير الخدمات نفسها التي تمتدح نموذجها في التطور. والازدهار الريفي في الثمانينيات من 1980 والتسعينيات من 1990 قد انتهى، واليأس يزحف عائداً. وإحدى العلامات له ازدياد معدل الانتحار، وخصوصاً بين النساء الريفيات. الصين الآن لديها أعلى معدلات الانتحار النسائي في العالم، والانتحار هو السبب رقم واحد للموت في صفوف النساء في الأعمار بين الثامنة عشرة والرابعة والثلاثين.

والسؤال الثاني هو هذا: هل كلها تستحق ذلك؟ تكلفة حكومة تمتلك سلطة مطلقة لتدفع قدماً بسياساتها هي تكلفة هائلة. طبعاً، من المثير للإعجاب أن الحزب الشيوعي كان قادراً على تنفيذ برامج تطعيم واسعة وحملات تعليم، على الرغم من أنها قد يجعل إحصاءاتها تبدو أفضل مما هي عليه. ولكن الجانب الخلفي من الصورة هو أن الحكومة تستطيع أن تدفع قدماً بسياسات ليست بالضرورة في صالح الشعب الصيني العادي. وتستطيع مع ذلك أن تقرر كم من الأطفال يمكن لمواطنيها أن ينجبوا. وتستطيع أن تدمر أجزاء تاريخية من المدن القديمة من أجل إعادة التطوير. وتستطيع أن توافق على مشروعات مثل مشروع سد نهر يانغسي وتبنيه وهو الذي يستدعي إعادة إسكان أكثر من مليون نسمة. وبشكل أكثر إثارة للجدل، فالحكومة تستطيع أن تنهمك في حملة قتل لإخماد مجموعة روحية غير مؤذية نسبياً، مثل فالون كونغ. في معظم مجالات الحياة الصينية، هناك القليل من القيود على سلطة الدولة إذا هي أرادت أن تتدخل، وهكذا فكل شيء يتوقف على كون السياسات التي تريد الدولة أن تتابعها مفيدة للشعب أو غير مفيدة.

في الهند، تكلفة بعض التقييد الموضوع على الحكومة هو معدل نمو أبطأ، وكثيرون من الهنود مستعدون، على ما يبدو، أن يسهموا في ذلك، إذا كان يعني أن من الممكن تجنب حكومات سياسية مجنونة مثل الثورة الثقافية. قد لا تكون الديمقراطية الهندية كاملة، ولكنها على الأقل تسمح بوجود اتحادات عمال مستقلة، وبعضها تملك الأسنان. والهند تملك أيضاً صحافة حرة، تستطيع أن تتصرف بصفة كلب حراسة على السلوك السيئ للدولة. والصحافة الآن في الصين، أكثر حرية في القضايا الاجتماعية والاقتصادية، ولكن الحكومة تستطيع أن تكممها بسهولة في أي قضية حساسة.

في النهاية، هناك، مع ذلك، اختلاف واحد حاسم بين الصين والهند، والمثال الكامل فيه مغطى بالزفت الأسود ويمتد شرقاً وغرباً من خلال هوفاي. الصين مكان متوحش للعيش إذا كنت في مستوى القاع من المجتمع، ولكن هناك مخرج. وهناك ما يساوي ذلك في الأهمية تماماً، وهو وجود إمكانية حقيقية للحصول عمل في الطرف الآخر. سكان الهند البالغ عددهم 1,1 من البلايين من الناس يلحقون بسرعة مع عدد سكان الصين البالغ 1,3 من البلايين من الناس، ولكن الهند تمتلك 10 ملايين وظيفة صناعية فقط، مقارنة مع 150 مليون وظيفة تقريباً في الصين. وهكذا فهناك ببساطة فرص أكبر في الصين لتحسين حياتك (وأنا لم أذكر أيضاً نظام الهند المحدد للطبقات ولو مجرد ذكر). إن قطاع الخدمة المتنامي في الهند، في تطوير البرمجيات، في مراكز الاتصالات ومراكز الخدمة، قطاع عظيم إذا كنت أنت من قبل من الطبقة الوسطى وتتكلم الإنجليزية. ولكن ماذا عن الإمكانات من أجل مئات من الملايين من الفلاحين الأميين؟ يبدو لي أن الهند تحاول أن تصل إلى الحداثة من دون المرور في الثورة الصناعية.

والآن، وتكلفة التصنيع ترتفع في الصين، فإننا قد بدأنا نرى بعض التصنيع يعيد التموضع في الهند. وقطاع البيع بالمفرق في البلد يبدأ بالعمل أيضاً، والهند في وسط تغيرات اقتصادية كبيرة أخرى. وهكذا فقد يحدث، في المستقبل القريب، أن يتوافر المزيد من الفرص للهروب من الفقر الريفي، وفي هذه الحالة فإن الميزان سيرجح لصالح الهند.

وأنا في الحقيقة محبط من أن واحداً من الهنود الوحيدين في الصين الوسطى لا يريد أن يقوم بهذه المناقشة معي. وهكذا في النهاية، أكملت المناقشة مع نفسي على العشاء، واستنتجت أنني لا أريد أن أكون فلاحاً صينياً أو فلاحاً هندياً. ولكن إذا كان علي أن أفضل جانباً على آخر، فأنا أفضل، على الرغم من كل المشكلات الهائلة في الصين الريفية، اللحم الحلو الحامض على برياني الدجاج في أي يوم من الأسبوع.

7
«النساء يرفعن نصف السماء»

الشرطي يسأل: «كم عمرك أيها الشاب؟»

ويجيب وانغ الصغير: «عشرون».

«دعني أرى رخصتك، رخصة السائق».

وخرجنا كلانا من السيارة، والشرطي ينظر إلي نظرة شك ويانغ الصغير يستند إلى الخلف ليجد وثائقه.

ويقول الضابط: «سيكون عليك أن تأتي إلى مركز الشرطة، ارجع إلى سيارتك واتبعني».

وينظر وانغ الصغير إلي، ولكننا ندرك أننا لا نملك خياراً.

على بعد مائة ميل إلى الغرب من هوفاي، صارت المسارات الأربعة من الطريق 312 مسارين حين يعبر الطريق إلى مقاطعة هونان ويتضاءل المرور. وهناك الكثير من حافلات الركاب للمسافات الطويلة والشاحنات الزرقاء على الطريق، زائداً سيارات النقل المغلقة الصغيرة (ميني فان) المستعملة في الأعمال التجارية المحلية التي تمر من حين إلى آخر مع بضع سيارات لامعة سوداء من نوع أودي آ4اس، وهي محفات الحمل الحديثة اليوم لمسؤولي الدولة. ولكن قلة من السيارات الشخصية موجودة. والمنظر الطبيعي على الأرض أخضر وسهل.

كان وانغ الصغير يحاول أن يوصلني إلى مدينة شينيانغ، وهي على بعد 250 ميلاً عن هوفاي، ويعود إلى هوفاي في يوم واحد، وهكذا فحين دخلنا هونان، وضع قدمه على الأرض، وأسرع، وفي الحال أعولت صافرة وظهرت خلفنا سيارة شرطة، وتومض لنا بأن نقف.

وهو يلوم نفسه لكسر حدود السرعة. ويقول ونحن نتبع سيارة الشرطة على طول الطريق: «إن العبور إلى مقاطعة أخرى خطر دائماً. والشرطة يكمنون بانتظارك، وهم يعرفون أنهم يستطيعون أن يجدوا شيئاً ما خطأً في سيارتك ويغرموك».

وأشير إلى أنه كان يتخطى حد السرعة بشكل كبير تماماً، وهو يقر أنه فعل ولكنه يقول إنهم كانوا سيجدون شيئاً ما خطأً على أي حال. ويقول: «تلك هي الكيفية التي يستكملون بها راتبهم».

كان وانغ الصغير قلقاً جداً ونحن نقترب من مركز الشرطة. وأنا أخبره بألا يقلق، وأن يكون معبراً عن الندم للغاية، وأن يتركني أقوم بالكلام. لقد سبق لي أن اعتقلت عدة مرات في كل أنحاء الصين بسبب إرسال تقارير من دون إذن، والخط الأخير، أو النتيجة الرئيسية هو أن الشرطة قد يصرخون قليلاً، ولكنهم لن يؤذوا أجنبياً أو سائقه إذا كانا معاً. وهم هنا لا يعرفون أيضاً أنني صحفي.

حين وصلت إلى الصين مراسلاً، تخيلت نسيجاً كبيراً من المسؤولين، وأنهم جميعاً على اتصال أحدهم مع الآخر، فموظفو الجمارك في المطار الذين يدققون في حقائبك يتحدثون إلى موظفي الأمن العام الذين يراقبون هاتفك، والذين يتحدثون إلى المسؤولين المحليين في الأماكن التي تزورها. وفي الحقيقة، أن الأمن ليس قريباً من هذا التعقيد في أي مكان. فجهاز أمن الدولة الصيني غير مركزي جداً وغير مترابط تماماً. ويمكن أن يكون غير لطيف للأجنبي حين يريد ذلك ـ إذا أمسكوا بك وأنت تستقصي عن شيء ما حساس جداً ـ ولكن المسؤولين المحليين يختارون في الغالب، حينئذ أيضاً، ألا يرفعوا تقريراً عنك إلى مراتب أعلى في سلسلة القيادة الرسمية، وذلك خوفاً من أنهم سيظهرون سيئين لأنهم سمحوا لك أن تكون هناك في المقام الأول.

في مركز الشرطة، هناك مفاجأة أكبر لدى وصول الأجنبي بصندله المضحك وأقدامه الوسخة. ولا أستطيع أن أتخيل أنه كان يوجد الكثير من المرور هنا مؤخراً عبر هذا الطريق. ومن المؤكد أنه لا يكاد يظهر أي سبب للأجنبي ليأتي إلى هذا الجزء من الصين.

ورئيس الشرطة، وهو الشرطي السيئ من المجموعة كما هو واضح، يتولى القضية من ضابطنا، قائلاً فوراً إنه قد يكون عليه أن يصادر الرخصة والسيارة معاً من سائقي الشاب. ووانغ الصغير يجلس قلقاً في الركن.

«تصادر السيارة؟» قلت ذلك متعجباً، ومحاولاً أن أوازن نبرة تقع في مكان ما بين قول من فضلك يا سيدي لا تفعل ذلك وقول أنا أجنبي فلا تفكر مجرد تفكير بأن تفعل ذلك.

ويبدأ بتدوين ما حدث في حين نجلس نحن ونراقب.

الشرطة الآخرون يريدون الحديث معي، وحين كان الرئيس يكتب، يسأل واحد منهم إن كنتُ أحب كرة السلة.

وأجيب، «نعم، أحبها»

ويسألني: «من هو لاعبك المفضل؟»

وأقول: «أوه، ياو مينغ، بالتأكيد».

ويقول الضابط: «إنه جيد، أليس كذلك؟ ونحن نحبه أيضاً».

وأقول: «إنه أفضل من أي من الأمريكيين». أقوله وأنا أدرك أن التملق قد يكون أسرع طريق للخروج من هذه الحفرة خاصة.

ويشترك زملاؤه، مع تحليلاتهم عن تغيرات رابطة كرة السلة الوطنية صعوداً وهبوطاً، ثم بعدئذٍ نغير إلى كرة القدم الأوروبية، وكيف يعمل نادي مانشيستر يونايتد، وكما هو الحال دائماً، فهم يريدون التحدث عن كابتن إنجلترا السابق ديفيد بيكهام، الذي يعرفون عنه جميعاً أنه متزوج من فيكتوريا، والمعروفة من ناحية أخرى باسم بُش من فرقة «فتيات البهارات».

ويخف المزاج قليلاً، ولذلك أشن اعتذاراً آخر إلى السيد الشرطي السيئ نيابة عن وانغ الصغير وأشرح كيف أن الأمر كان كله غلطة مني. فالأجانب يحصلون على كثير من هامش الحرية مع الشرطة الصينية. والناس الصينيون العاديون لا

يحصلون على شيء. ويشير الشرطي السيئ مرة أخرى كم هي الإساءة خطيرة بل هو يفتح كتابه عن القواعد.

ويسأل: «هل تقرأ الصينية؟»

وأومئ. وهو يفتح الكتاب على الصفحة التي كتب فيها فعلاً، وبشكل محفوظ في القانون الصيني، أن الغرامة على السرعة هي «بين 500 إلى 2500 يوان» (70 دولاراً إلى 300 دولار)، وهكذا يترك التقدير بشكل مريح إلى كل رجل شرطة ليقدر كم يغرم ويرفع الغرامة؟ وكم يحتفظ من الغرامة لنفسه؟

وفي النهاية، تستغرق ساعتين من التواضع من ناحيتي، وملء الاستمارة من ناحيته، بله المناقشات الأخرى عن دفاع هيوستن روكيتس، قبل أن أخلي سبيلنا. ويجبر الشرطي السيئ وانغ الصغير على أن يوقع استمارة يقر فيها بذنبه ويقرر أن الغرامة هي ألف وسبعمائة يوان. وذلك مائتا دولار تقريباً، وهي أكثر من راتب شهر بالنسبة إلى وانغ الصغير. وأسحب محفظتي، وأدفع الغرامة، ونشكر الشرطة بأدب ونغادر قبل أن يغيروا رأيهم.

وعدنا إلى الطريق 312 ووانغ الصغير يسوق ببطء أكبر بكثير بعد ذلك. ولكن آماله في توصيلي إلى شينيانغ والعودة إلى هوفاي قبل هبوط الليل خابت.

قال الرئيس ماو مرة إن «الثورة ليست حفل عشاء،» ولم يكن مازحاً. ماو حطم الصين. بصرف النظر تماماً عن عدد الوفيات المذهل في القفزة الكبرى إلى الأمام، والأرواح التي أزهقتها الثورة الثقافية، فإن ماو قتل جزءاً كبيراً من المثقفين، وأعدم التراث الثقافي للصين، وشجع الآباء على إنجاب عائلات كبيرة، وهو ما نتج عنه انفجار سكاني مازال يتم التعامل معه حتى اليوم. وكان إحصاء العام 1953 قد وجد أن سكان الصين أكثر قليلاً من 580 مليون نسمة. والآن هم، حوالي 1.3 من البلايين من الناس، لقد ازداد العدد أكثر من الضعف.

ومع ذلك، ففي مجالين اثنين لا نكران للتحسين الإجمالي الذي صنعه ماو. الأول كان في الصحة العامة والعمر المتوقع. وهامش التفوق الذي تملكه الصين على الهند في

إحصاءات الصحة الأساسية يمكن أن يعزى إلى حدٍ كبير إلى الحملات في السنوات الأولى للماوية. في العام 1949، كان العمر المتوقع المتوسط خمساً وأربعين عاماً فقط. وبحلول العام 1975، كان العمر المتوقع المتوسط ثلاثة وستين عاماً. واليوم، هو واحد وسبعون عاماً. ومعدل وفيات الأطفال كان قد صار في السنوات الخمس الأولى من حكم ماو نصف ما كان عليه سابقاً واليوم هو ثمن ما كان عليه في العام 1949.

والمجال الثاني الذي حسن فيه ماو الحياة كان مكانة النساء. لقد قال قولاً مشهوراً هو أن «النساء يرفعن نصف السماء» وانطلق يتحقق من أنهن يفعلن ذلك. وإلى أن جاء الشيوعيون إلى السلطة تماماً في العام 1949، كان النساء يشرين ويبعن بصفة زوجات، مثلما كان يفعل بهن طوال القرون. فلم يكن من غير المعتاد للرجال الأغنياء أن يمتلكوا ثلاث زوجات أو أربع زوجات، ولكن فجأة، تغير كل ذلك. فأعطيت النساء وظائف في المصانع. وبعضهن أحرزن مناصب من المسؤولية. وأشبعت آلة الدعاية المجتمع بملصقات للنساء وهن يقفن كتفاً لكتف مع الرجال في الثورة. ولم تكن الحقيقة الواقعة كاملة مثلما صنعتها الدعاية، ولكنها كانت تحسيناً ضخماً.

ومع ذلك، فالعجلة، الآن، تدور ثانية. فمن الواضح أن خمسة آلاف سنة من هيمنة الرجل تستغرق أكثر من ستين سنة للتغيير. فالثورة الشيوعية انتهت. ومكانة المرأة في الصين أعلى بكثير بالتأكيد مما كانت عليه منذ ستين عاماً، وبالنسبة إلى الزائر الغربي فهي تبدو بالتأكيد أعلى، وبشكل متناسب، من مكانة المرأة في الكثير من البلدان الآسيوية التي هي أغنى من الصين، مثل كوريا الجنوبية واليابان، التي تبدو فيها النساء أحياناً وكأنهن يعاملن مثل شكل أدنى من الحياة. ولكن في حين قد يكون فيه مكانهن في المجتمع أعلى، فإن موت المساواة الشيوعية قد عنى أن النساء الصينيات، مثلما كان الأمر في الاتحاد السوفييتي، يكافحن ليتمسكن ببعض مكاسب السنوات الشيوعية. وموت الإيديولوجية الشيوعية يعني أيضاً أن الأخلاقيات الصارمة التي نفذها الحزب فقدت قبضتها على سلوك الناس. وتقدر الدراسات أن بين 10 إلى 20 مليون امرأة صينية ينغمسن في تجارة الجنس في الصين.

وهذا كله يقود إلى بار الكاريوكي في الطابق السابع من فندقي في شينيانغ، وهي مدينة غير مميزة نوعاً ما في الأرض الداخلية المنبسطة الزراعية من مقاطعة هونان الجنوبية. ويبدو أن كاريوكي هو أكبر صناعة مزدهرة في شينيانغ (وربما تكون الصناعة الوحيدة). والمكان الذي يوجد فيه كاريوكي، يوجد فيه بشكل ثابت ما يسمى باللغة الصينية حرفياً «السيدات الشابات للمرافقات الثلاث». ففي مقابل أجرة صغيرة، فهن يرافقنك لتشرب، ولترقص، ولتغني. وهناك، طبعاً، مرافقة رابعة، ولكن تلك المرافقة تكلف تكلفة إضافية.

يوجد مؤسستان في كل فندق متوسط الحجم أو كبير الحجم في الصين تظهران التغيرات الجذرية في أخلاقيات الجمهور. وإحداهما تعرف باسم منشأة «تدليك السونا»، وهي، مثلما يوحي اسمها، توفر كل نوع من السونا وكل نوع من التدليك، وفي الغالب، كما قيل لي في الوقت نفسه. والمؤسسة الثانية هي بار الكاريوكي. وكلتاهما يتم الإعلان عنها جهاراً، وبلا خجل، وكلتاهما عموماً واجهة للدعارة فقط. وعلى الرغم من وجود ضوابط منتظمة على مثل هذه المؤسسات، فإن الإدارة إذا كانت تقيم علاقات جيدة مع الشرطة المحلية (أو أنها تعرض على الشرطة، وهو أكثر احتمالاً، زيارات حرة)، فإن السلطات سوف تتركهم وشأنهم. وفي الحقيقة، من المعروف جيداً في كل أنحاء الصين أن الشرطة والعسكريين كانوا هم بعض أكبر رعاة أو مالكي بيوت الدعارة.

أجريت مقابلات مع العديدات من الساقطات الصينيات في أثناء سنواتي في الصين. وهؤلاء النسوة لديهن في الغالب أشد القصص قهراً وأفجعها عن الحياة في قاع المجتمع الصيني. ولكنني مازلت أشعر بالانزعاج لدى الذهاب إلى بارات الكاريوكي في الأماكن التي يعملن فيها. هناك شيء ما بشأن البحث عن ساقطة، ولو لمجرد إجراء المقابلة. ذلك يزعجني، لأن العمل على هذا الشكل يغذي فقط النمط السائد الصيني لدى الرجال الغربيين بوصف الصينين مفترسين جنسياً. وأنا دائماً أهاتف زوجتي في بكين لأخبرها ماذا أفعل («مرحباً، يا حبيبتي، أنا الآن خارج منذ قليل أبحث عن ساقطات»)، وذلك تحسباً لحالة قد تحتجزني فيها الشرطة.

ومع ذلك، فحين جاء الوقت الذي انفتح فيه باب المصعد في الدور السابع، كنت قد حولت نفسي إلى نموذج الرجل الغربي، أبحث عن امرأة صينية لتلك الليلة. حيتني امرأة متوسطة العمر تبدو وكأنها تحاول أن تفي بالنموذج أيضاً. وهي تلبس عباءة صينية حمراء تقليدية كانت تناسبها تماماً منذ خمس سنوات، وهي تضبط المدخل بحضور امرأة تستمتع بكونها في موقع السيطرة. ابتسامتها جامدة بشكل مبالغ به قليلاً، وانحناءتها مؤدبة بشكل مبالغ فيه قليلاً. وهي السيدة التي تدير بار الكاريوكي. وهي تشير بأقل إشارة من رأسها إلى فتاتين تحومان خلفها بهدوء، ثم تشير لي بيدها، مع ابتسامة أكثر تصنعاً أيضاً، بأن علي أن أتبعهما. وتأخذاني نزولاً في ممر مظلم مغطى بورق جدران أخضر نحو واحدة من غرف الكاريوكي. والعديد من الرجال الصينيين في غرف مختلفة يصارعون مع نغمات عالية من أغنيات الحب، والممر يرجّع الأصداء مع النشاز والاختلاف. إنها علامة جيدة. فالقاعدة العامة في الصين، هي أنه كلما كان الكاريوكي أسوأ، فالقصة أمتع.

وحين كنا نمر، كان أحد الأبواب يدفع ليغلق قبل قليل من مرورنا، ولكنني استطعت أن أرى في الداخل غرفة مليئة بالنساء الشابات الجذابات الجالسات يتحادثن، والكثيرات بملابس قليلة، ويقمن بالتزيين. هؤلاء هن فتيات شينيانغ، يحضرن لعمل الليلة، وإذا أردت برهاناً على أن الثورة الشيوعية منتهية، فهو هنا.

وتم اقتيادي إلى غرفة كبيرة فيها أريكة خضراء وبنفسجية في شكل حرف ال L، ممتدة على طول جدارين. وهناك طاولة كبيرة، منخفضة في مقدمة الأريكة مع تلفاز ضخم على أحد الجدران. واختفت الفتاتان وتُركت وحدي، شاعراً أني أصغر جداً من الغرفة، وأنظر إلى قائمة الأغاني الموضوعة للكاريوكي الصيني.

وتظهر السيدة المبتسمة ثانية، تقود أربع فتيات إلى داخل الغرفة، وتطلب مني أن أختار واحدة لتغني معي. وتقف الفتيات كلهن، وهن ينظرن خجلات، متجنبات لقاء العيون معي، وأنا أشعر بأني محرج لأني أضعهن في محنة. وأشير إلى الفتاة في آخر المجموعة، وتخرج السيدة مع الثلاث الأخريات في صف إلى خارج الغرفة.

وأقول لها: «من فضلك اجلسي»، أقول ذلك مع ابتسامة ودية تحاول أن تقول لها «لا تقلقي». وهي تلاحظ موقفي الودود وتجلس، وهي أقل عصبية نوعاً ما، على الأريكة الخضراء والبنفسجية.

وتعلق بعد أن سمعتني أقول كلمتين فقط: «لغتك الصينية جيدة جداً»

وتقول إن اسمها وو يان، وأنها في العشرين من العمر، على الرغم من أنها تحاول أن تظهر ثقة شخص أكبر عمراً. وهي ليست طويلة، وشعرها الأسود ينساب إلى كتفيها، وهي تلبس لباساً أسود قصيراً من الحرير المزيف. أظافرها مدهونة باللون الأحمر. وعملها أن تلعب النرد وتغني وتشرب مع الرجال الذين يأتون هنا، وأحياناً تقدم الصحبة الرابعة أيضاً.

وأشجعها أن تغني، وهكذا فهي تمسك بالميكروفون وتغني قصة شعرية صينية حلوة بصوت حزين، مرح، وهي تصب كل كيانها في الأغنية.

مراقبة الكاريوكي في الصين تسلية رائعة. وبصفتي مراسلاً إذاعياً، وجدت على مر السنين أن إقناع الشعب الصيني ليتكلم بصراحة إلى ميكروفون مشكلة حقيقية. لقد أرخت البلاد الكثير من القيود منذ الأزمنة الماوية، ولكن مازال هناك تردد بشأن التحدث بصراحة، وخصوصاً إلى أجنبي وبشكل أخص إلى مراسل أجنبي. طبعاً، هناك الخوف من قول شيء قد يقود إلى مشكلات سياسية، ولكن هناك أيضاً تكتم صيني، مبني فيهم تماماً، عن الكلام بصراحة إلى الأجانب.

ادفع بميكروفون كاريوكي إلى يد شخص صيني فهو أو هي، مع ذلك، لا يحتاج أي دعوة ثانية ليغني، بغض النظر عن مدى سوء الغناء. الكاريوكي هو الأداة النهائية المقبولة اجتماعياً بالنسبة إلى الشعب الآسيوي ليقولوا الأشياء المخبأة عميقاً بداخلهم. وو يان قالت تماماً الكثير جداً من الأشياء لي، وإلى الغرفة الكبيرة الفارغة، التي لم تفهم في الحقيقة.

معظم الغربيين (ومن جملتهم معظم الموجودين في الصين) يفضلون أن تغرز الإبر في عيونهم أكثر من الغناء أمام العامة. ربما نحن معتادون على التحدث بما

في عقولنا، وعلى طرح الأسئلة بصراحة وعلى توقع الأجوبة الصريحة، ويبقى القليل مخبأ ليخرج في شكل محرج، غير مباشر مثل الغناء العام.

وصحة هذه النقطة تتوضح بشكل أشد حدة أيضاً حين يأتي دوري لأغني. فمن العسير على أب متزوج زواجاً سعيداً ووالد لاثنين أن يقول الكثير جداً من الأشياء المخبوءة لساقطة قد قابلها قبل قليل ولا يريد أن ينام معها، في بار كاريوكي في آسيا الوسطى، في الوقت الذي يغني فيه أغنية رود ستيوارت «أنا مبحر» في أعلى رئتيه، بصوت عال. وأنا أحاول ألا أحرج نفسي، ولكن أدائي الضعيف واضح جداً. وو يان تمسك الميكروفون وتغني رقماً آخر بنبض أبهج قليلاً، تسكب فيها ثانية كل أنواع العواطف السوداء، وربما بأشياء لم يسبق لها قط أن أخبرت بها بشراً، وها أنا هنا، أسمعها كلها تنسكب من قلبها ولا أفهمها.

بعد أن انتهت الأغنية الثانية، تخرج النرد. ومرة أخرى، أنا الأجنبي الأبكم. إنها لعبة لا أفهمها، وهي لا تستطيع أن تصدق أنني لا أستطيع. وهي تخشخش قطع النرد بيديها وترمي بها على الطاولة مع ضحكة واثقة، ومهما يكن ما يجب عليك أن تفعله لتربح، فأنا حاولت ألا أفعله عدة مرات. وفي أثناء قيامنا باللعب، أخبرها بالذي أفعله هنا وأسألها إن كانت ستجيب على أسئلتي. وتنظر إلى الباب لتتأكد أن المدام ليست قادمة ثم بعد صمت طويل، توافق على الحديث، طالما أنني لا أستخدم اسمها الحقيقي.

يدفع لها اثنا عشر دولاراً لمرافقة رجل للغناء والمحادثة والرقص، وإذا أراد الرجل المرافقة الرابعة في غرفته في الفندق، فيجب عليه أن يضاعف السعر ثلاث مرات، إلى أربعين دولاراً تقريباً. ويبدو ذلك مبلغاً كبيراً من المال بالنسبة إلى هذا الجزء من الصين. ولكن يجب عليها بعدئذ أن تعطي ثلث ذلك المبلغ إلى المدام التي تدير بار الكاريوكي.

منذ ستين عاماً، وطوال التاريخ الصيني قبل ذلك، كان هناك ساقطات مثل وو يان في كل شارع، وفي كل بلدة. وحين صعد الحزب الشيوعي، في الثلاثينيات من

1930، والأربعينيات من 1940، بهدف إعادة توحيد الصين وجعلها قوية سياسياً، فقد شرع الحزب أيضاً في القضاء على القمار والأفيون والبغاء، وبعد أن جاء الحزب إلى السلطة، نجح في ذلك إلى حدٍ كبير، وبعد العام 1949، جرى تحويل المجتمع. وفي ذروة الماوية، كان يمكن لفتاة مثل وو يان أن تكون عاملة شابة في مصنع، تكد إلى جانب الشباب لبناء الاشتراكية، وتقدم لهم الدولة الرعاية من المهد إلى اللحد.

الآن، وعلى كل حال، الاشتراكية ميتة والبغاء قد عاد، ومثله كذلك القمار والمخدرات. لقد كانت الأخلاقيات الشديدة، المفروضة بالقوة من الشيوعية مجرد نقطة مضيئة في التاريخ الطويل للبلاد. وقد قتلتها قوات السوق المحضة وأفنتها.

وقصة وو يان،مع ذلك، أكثر إثارة للاهتمام، لأنها ليست لمجرد الحصول على المال. وكنت أتوقع ما تقوله عن والدها يموت حين كانت صغيرة، وكيف كان عليها أن تعيش مع جدتها، وكيف كان عليها أن تغادر المدرسة مبكرة بسبب عدم وجود المال، وكيف أنها لم تستطع أن تحصل على الوظيفة المناسبة حين غادرت المدرسة. الحياة قاسية عند مستوى قاع المجتمع في الصين الحديثة والفواجع جمة.

ولكن هناك ميل خطر لكل شيء في الصين الحديثة يتمثل في إعطائه دافعاً اقتصادياً، وكأنما الضغط المالي هو السبب الوحيد لأي شخص ليفعل أي شيء في كل زمان. ونحن نخفق في الغالب في أن نرى أن الشعب الصيني أفراد يعيشون، ويتنفسون، ويحبون، ويكرهون، ويفعلون أشياء لأسباب نفسية معقدة، مثلهم مثل الغربيين تماماً. وحين كانت وو يان تجلس وتتحدث عن حياتها، فإن قصتها لم تحتو على تلك النبرة النموذجية، التي تقول: «يجب علي أن أفعل هذا أو فلن أكون قادرة على أن أجد الطعام». إنها سكوت قليلاً، ومتهكمة وغاضبة.

وفي النهاية أسألها: «وإذاً لماذا تعملين هنا؟»

وكان هناك صمت طويل.

«كان هناك شاب...». وتتوقف ثانية لوقت طويل، تخشخش بالنرد في فنجان البلاستيك الرخيص. «... وأنا أحببته كثيراً». وهي تنظر إلى الأرض.

«ولكنه أحب فتاة أخرى». تتوقف عن هز النرد، ثم تنظر إلى الأعلى نحوي بعينين واسعتين متألمتين. وساد صمت طويل وأنا أحاول أن أحسب ما تقوله.

«وهكذا... فأنت... تفعلين هذا لمعاقبته... أو لمعاقبة... نفسك؟»

لا تجيب ولكنها تمد ذراعها إلي، وراحة يدها إلى الأعلى. هناك ندبتان مقطوعتان على ذراعها الأدنى، وكأن رسغها كان قد قطع. وتنظر بشكل غاضب في عيني.

وتقول أخيراً: «من الصعب أن تكون شخصاً، أليس كذلك؟»

وأنظر إليها وأومئ ببطء. وهي تهز الفنجان بقطع النرد في الداخل وتضرب بها نازلة بعنف على الطاولة الزجاجية.

8
«ضعوا الشعب أولاً»

في الصباح التالي، أستيقظ مبكراً، وأنا أشعر بإحساس خفيف من الخوف. حتى الآن في رحلتي، لم أفعل في الواقع أي شيء لا ينبغي أن أفعله ولا كنت في أي مكان لا ينبغي أن أكون فيه. ومن السهل سهولة كاملة أن تفعل ذلك في الصين، أن تسافر متجولاً، وتعجب من التغيير غير العادي، وتتحادث مع كل أنواع الناس، ولا تكون في الحقيقة واعياً قط أن هناك أشياء مزعجة، كامنة تحت السطح، فمازال هناك بعض الأشياء الرهيبة المستمرة. وأنا ذاهب اليوم إلى تقصي واحد منها.

وبصفتي صحفياً في الصين لإذاعة، فقد قدمت تقارير عن عدد مرض من القصص الحساسة، وهناك قائمة من ثلاثة أشياء أتحقق دائماً من أنني أمتلكها قبل الانطلاق. الأول، دليل محلي ممتاز أو سائق ممتاز، يعرف الناس ويستطيع أن ينتقل بك بسرعة خاطفة داخل المكان المقصود وخارجه قبل أن تكتشف الشرطة أنك موجود هناك. والثاني، بطاقة سيم (وحدة هوية المشترك) اس آي ام لهاتف خليوي مأمون لا تعرف السلطات عنه. والثالث، الملابس الداخلية من النوع المناسب.

وأهم أجزاء في أي رحلة لتقديم التقارير الصحفية بالنسبة إلي هي أقراصي الصغيرة، الأقراص الرقمية من قياس ثلاثة إنشات في ثلاثة إنشات التي أسجل عليها كل مقابلاتي. فإذا عدت من رحلتي من دونها، فأنا عندئذ لا أمتلك شيئاً ليذاع. وحين تذهب إلى أماكن في الصين لا يفترض أن تكون فيها، فأنت معرض لخطر التوقيف والتفتيش من الشرطة المحلية، الذين لا يريدونك، كما هو غني عن القول، أن تتطفل على منطقتهم وتقدم عنها التقارير الصحفية عن أشياء تجعلهم يظهرون بمظهر سيئ. وإذا هم أوقفوك، فسوف يفتشونك بشكل ثابت ويفتشون حقائبك تفتيشاً كاملاً، ويأخذون أقراصك الصغيرة، وآلة التصوير، وشريط الصور (الفيديو)، ودفتر ملاحظاتك إذا اكتشفوا كل ذلك.

وهكذا فقد طورت إستراتيجية، سأستخدمها اليوم (لأنني أنوي أن أسجل مقابلات)، وذلك يعني أنني مستعد استعداداً جيداً إذا صار من الواضح أنني على وشك الوقوع في الاعتقال. وتتضمن أن يكون معي في جيبي أقراص صغيرة للخديعة، أستطيع أن أبدّلها لدى سقوط غطاء كالقبعة مع الأقراص الصغيرة في آلتي (المحتوية على المقابلات الحساسة التي أكون قد قمت بها منذ قليل). ومع وجود القرص المزيف بأمان في الآلة، يختفي أنئذٍ القرص الحساس نزولاً في سراويلي التحتانية، في مكان من غير المحتمل أن يغامر في الوصول إليه أكثر الشرطة الصينية تمرداً كذلك.

والآن، إذا سبق أن حاولت في أي وقت أن تخبئ قرصاً صغيراً (أو أي شيء آخر لا ينبغي أن يكون هناك) في بنطال الملاكمين القصير، فسوف تجد أنه، عاجلاً أم آجلاً، ينزلق نازلاً على ساقك باتجاه عقبك، وإذا كنت سيئ الحظ، يندلق خارجاً على الأرض. وإذا تصادف أن تكون واقفاً أمام عدد من رجال الشرطة الصينية الشرسين، فإن إوزتك ستطبخ،تدمر فرصك، ويضيع أملك بالنجاح، وستقاد إلى الزنازين (ومثل ذلك، وهو في الصميم، سيُفعل بالصينيين الذين تقابلهم). ولذلك، خذ بنصيحتي.إذا كنت تخطط لأي مهام صحافية حساسة في الصين، احشد حيلك الماكرة.

تعاني مقاطعة هوهنان بالتأكيد من مشكلة الصورة. وهوهنان يجب ألا تختلط مع مقاطعة هونان وهي تقريباً بحجم (داكوتا الشمالية، ولكن في حين أن داكوتا الشمالية تضم 642.000 نسمة فإن سكان هوهنان تضم 93 مليون نسمة. ذلك حق. والمقاطعة الصينية المفردة من هوهنان تضم سكاناً هم أكثر تقريباً بـ 150 مرة من سكان داكوتا الشمالية، وفي الحقيقة أنها تضم عدداً من السكان أضخم من أي بلد في أوروبة.

وحيث توجد مزرعة في داكوتا الشمالية، توجد قرية (أو قريتان) في هوهنان. وهذا يعني أن قطع الأرض هنا صغيرة جداً، جداً وهوامش العيش هزيلة جداً، جداً. وربما يكون الضغط على الأرض هو السبب الذي يجد من أجله كثيرون من الناس طريقهم إلى احتيالات من كل نوع. هوهنان المقاطعة التي يحب الناس

الصينيون الآخرون أن يكرهوها. إن من المثير للتعجب كم من المرات سوف تسمع الناس يقولون: «الناس من هوهنان سيئون جداً».

لم تكن سمعة هوهنان دائماً سيئة. بل على العكس تماماً. كانت المقاطعة في العادة مرادفة للمجد، بالإضافة إلى قوة الحضارة الصينية، ومن ثم كانت تعد مكاناً رائعاً على نحو ملحوظ، محتضنة في الأرض القلب من الصين، بعيدة عن الأخطار في أي حدود. وكانت أسرة شانغ (1045-1750 قبل الميلاد) قد اتخذت عاصمتها بالقرب من آنيانغ، في هوهنان الشمالية. وشانغ صبّت الأواني البرونزية الرائعة وطورت أول نظام صيني للكتابة. واللونغمين غروتوس (كهوف بوابة التنين) وتقع جنوب غرب آنيانغ، هي مشهورة على مستوى العالم بسبب 100,000 صورة بوذية منحوتة في وجوه الصخر في القرنين السادس والسابع بعد الميلاد. وصومعة شاولين الخاصة في هوهنان نفسها كانت منذ القرن الخامس، مركز الفنون القتالية في الصين. كل واحد في هوهنان كان يقاتل كونغ فو حين كان الأوروبيون مازالوا يعيشون في الكهوف. وأنا لم أذكر مع ذلك القصة غير العادية لليهود من كيفينغ، وهم الأحفاد المفقودون من وقت طويل من الإسرائيليين الذين وجدوا طريقهم بشكل ما إلى هوهنان في القرن الثاني عشر أو قبله.

ولكن يا للأسف، كل تلك الأماكن التي تلعق من أجلها الأصابع سيتوجب أن تكون موضوعاً لقصة شخص آخر، لأنها تقع بعيداً جداً إلى الشمال من الطريق 312، وخارج نطاق وصول هذا المسافر بالذات، الذي يجب أن يحدد نفسه في الجنوب حيث توجد علامات أقل من مجد أسر الصين القديمة وتوجد دلائل أكثر من أنواع الرعب من الأسرة الحالية.

أنا متوجه إلى ما يعرف بقرى نقص المناعة المكتسبة (الإيدز) من جنوب هوهنان. وتقدر المنظمات الأجنبية غير الحكومية أن هناك على الأقل 300.000 نسمة مصابين بفيروس نقص المناعة الإنسانية في مقاطعة هوهنان وحدها، وكان الوباء قد نتج بشكل كامل، وتفاقم، ثم غطت عليه وأخفته حكومة الحزب الشيوعي المحلية.

الإيدز مشكلة، لم تكن، في الذهن الغربي، مرتبطة ارتباطاً كبيراً مع الصين. والوباء الذي دمر جنوب إفريقية لم يصل بعد مثل هذه النسب في آسيا، على الرغم من أن الأمم المتحدة قد حذرت من أنه قد يكون هناك 10 ملايين حالة في الصين بحلول العام 2010 ما لم تتخذ الإجراءات الجادة. الصين تعاني من مشكلات شبيهة لتلك التي تعاني منها بقية العالم حين يصل الموضوع إلى تجارات المخدرات والجنس، وكلتاهما تنمو نمواً سريعاً. ولكن مقاطعة هوهنان كانت المركز لمصدر آخر، ربما كان أكثر ترويعاً كذلك، مصدر لفيروس نقص المناعة الإنسانية ونقص المناعة المكتسبة وهو: مخططات تديرها الحكومة تشجع الفلاحين على بيع دمائهم.

حين وصلت المساعدات المالية التي كانت تقدمها الحكومة المركزية إلى نهايتها وكانت الصين قد تحركت من الاقتصاد المخطط له إلى المزيد من اقتصاد السوق في مطالع التسعينيات من 1990، كان يتوجب على الحكومات المحلية أن تفكر في طريق لزيادة مالها الخاص. وقدمت إدارة الصحة في هوهنان فكرة الدفع للفلاحين العاديين لإعطاء الدم، ومنه يمكن استخلاص البلازما وبيعها للشركات الصيدلانية الغربية والصينية، التي تستخدمها لصنع التطعيمات. وكانت المخططات قد أقيمت في مقاطعات أخرى أيضاً، ولكن مخطط هوهنان كان أوسعها نطاقاً، وبالنتيجة أسوأ المخططات تأثراً.

كانت مراكز بيع الدم قد أقيمت في بلدات صغيرة، وسافرت مستوصفات متحركة كبيرة إلى القرى، فاكتشف فيها الفلاحون أنهم كانوا يستطيعون أن يكسبوا مالاً أكثر مما كانوا يكسبونه في شهر في كل مرة باعوا فيها دماءهم. وانتشرت الأخبار انتشار النار الهائلة في الهشيم. ومثل ذلك، لسوء الحظ، انتشر فيروس نقص المناعة الإنسانية.

كان الفلاح يؤخذ إلى داخل عربة مغلقة للتبرع بالدم، وتوضع إبرة في ساعده. ويذهب الدم المستخرج مباشرة إلى وعاء في الوسط، حيث سيخلط وتستخلص منه البلازما. ونظراً إلى أن الصينيين لا يحبون تقليدياً أن يفقدوا الدم من أجسامهم فقد كان يتم، بعد ذلك، إعادة ضخ الدم إلى ذراع المتبرع.

وحين بدأت تظهر، في أواخر التسعينيات من 1990، بقع غريبة على جلد الفلاحين، لم يكن لدى العاملين الصحيين المحليين أي فكرة ماذا كانت تلك البقع. وبعدئذ، في العام 2000 و2001، بدأ هؤلاء الفلاحون يموتون. ولم تسمح الحكومة المحلية بأي تغطية إعلامية لما كان يجري، ولكن في مناخ الصين الاجتماعي المنفتح على نحو أكبر، يكون من الأصعب بكثير في هذه الأيام على المسؤولين الحكوميين الاحتفاظ بالأسرار. ونُشرت بعض التقارير عن طريق أكثر المنافذ الإعلامية الصينية جرأة، وبعد ذلك مباشرة كان الصحافيون الأجانب، وأنا نفسي من جملتهم، يزورون القرى تحت غطاء ويحصلون على مقابلات مع الذين يعانون من الإيدز. وطوال العديد من السنوات، رفضت الحكومة المركزية أن تقبل أنه كانت هناك مشكلة، ولكن فجأة، في نهاية العام 2004، غير القادة في بكين موقفهم وأطلقوا مبادرة لمعالجة المشكلة وجهاً لوجه.ولكن ذلك، على كل حال، لم يحل مسألة الإيدز ولا بأي طريقة في هوهنان، بسبب الصعوبة الموجودة من قديم جداً في فرض سياسات الحكومة المركزية على المستوى المحلي. فسلطات هوهنان لا تريد أن تظهر بمظهر السيئ، ولذلك فالسلطات تفعل كل ما تستطيعه لتحدد أي نوع من الوصول إلى قرى الإيدز، بل تحاول أن توقف الأطباء والمسؤولين المرسلين من بكين وتمنعهم من أداء عملهم.

ولمساعدتي في التجوال في قرى الإيدز، رتبت أن أقابل رجلاً نشيطاً في موضوع الإيدز اسمه هيو جيا، وهو يسافر خصيصاً من بكين ليقابلني، وليساعدني في تجنب الوقوع في الاعتقال.هيو جيا هو واحد من جيل جديد من النشيطين الصينيين. بعد القتل الذي جرى في ميدان تيانانمين، في العام 1989، ذهب كثيرون من المنشقين إلى المنفى أو أودعوا السجن. وحين أطلق سراح المسجونين في التسعينيات من 1990، صار من الواضح لهم أن قضيتهم في الإصلاح السياسي بلا أمل. وبعضهم ترك النشاط السياسي تماماً ورموا بأنفسهم في الأعمال التجارية. النشيطون الشباب، مثل هيو (وهو في الثالثة والثلاثين) يعرفون أنهم سيعتقلون فوراً إذا قاموا بحملات من أجل الإصلاح السياسي، ولذلك تحولوا إلى النشاط في القضايا غير السياسية. وبعد سنوات من الحملات لحماية البيئة، يعمل هيو الآن متفرغاً كامل الوقت لصالح

منظمته الخاصة غير الحكومية المتخصصة بالإيدز. وهو يملك بعض الحيز للمناورة، لأن أهداف منظمته منسجمة إلى حد كبير مع سياسة الحكومة، ولكنه مع ذلك مازال يمشي على خط دقيق.

وعلى الرغم من تخفيف الضوابط الاجتماعية في الصين، فإن أي نشاط يجتذب الانتباه من قوات الأمن العام، وهيو جيا موضوع تحت المراقبة المستمرة في بكين. فأنت لن توضع بالضرورة في السجن لكونك نشيطاً، ولكنك بالتأكيد ستجد الكثيرين من الناس يدخنون السجائر ويقرؤون الصحف تحت أنوار أعمدة الكهرباء الموجودة خارج شقتك. وبيت هيو وأرقام هاتفه الخليوي الجوال مراقبة، وفي كل مرة أريد أن أتصل به، يجب أن أكتب له رسالة نصية وأطلب منه رقماً مأموناً. ويجد هو هاتفاً عمومياً فيرسل لي الرد في رسالة نصية بالرقم. وأقوم أنا بتدوين الرقم، ثم أغير بطاقة سيم، اس آي ام، في هاتفي إلى رقم هاتفي المساند، الذي لا يعرف عنه مكتب الأمن العام، وأهاتف هيو على هاتف النقود العام الذي يقف إلى جانبه.

طوال عدة أيام، كنت أرسل الرسائل إلى هيو جيا مستخدماً كلمات غامضة مشفرة أسأله أين يمكن أن نتقابل ومتى. وكنا في السابق قد ناقشنا على هاتف مأمون، أسماء عدد من البلدات المصابة بفيروس نقص المناعة الإنسانية، وذلك لكي نوفر التغيير المستمر لبطاقات سيم، اس آي ام، والبحث عن هواتف عامة، وأنا أكتب له رسائل نصية مثل «أنا أستطيع أن أكون في س يوم الأحد حول الساعة 9 صباحاً، فهل تستطيع أنت؟»

وترد رسائله «كلما كان أبكر فهو أفضل».

وتجولت في أنحاء شينيانغ في الليلة الماضية لأجد سيارة أجرة يكون زجاج نوافذها مدخناً ويكون سائقها مستعداً للانطلاق مبكراً في الصباح التالي. ويقول هيو جيا إن عليّ أن ألبس قبعة ونظارة شمسية لكي لا أكون عرضة للانكشاف مباشرةً بأني أجنبي حين أقفز إلى داخل أو خارج السيارات وأمشي داخلاً وخارجاً من البيوت لمقابلة الناس الذين كانوا قد أصيبوا بفيروس نقص المناعة الإنسانية نتيجة لسياسات الحكومة المحلية.

هناك على الأقل ثلاثون قرية إيدز في جنوب هوهنان، ومجموعة منها تقع تقريباً على بعد ساعتين في السيارة إلى الشمال من شينيانغ على الطريق 107. وذلك هو المعادل شمالاً وجنوباً لطريق 312، الذي يسير من بكين إلى الجنوب تماماً من الصين. ويتقاطع الطريقان في شينيانغ. وموقع هوهنان بوصفها تقاطع طرق في منتصف البلاد يسير بعض الطريق إلى تفسير الحالات الأولى من الإيدز. ويُعتقد أن المرض كان قد جلبه سواقو الشاحنات من منطقة المثلث الذهبي في جنوب غرب الصين، قرب الحدود مع لاوس وبورما، من الذين صاروا مصابين من خلال الجنس أو استخدام المخدرات ثم جلبوا الفيروس على طول نظام طرق الصين. وبعد أن صار قلة من الناس مصابين في هوهنان، تسبب البرنامج غير الصحي لبيع الدم في انفجار الوباء.

حين أخبر سائقي في سيارة الأجرة أن جهتي التي أتوجه إليها هي شانغتساي لا يكون سعيداً أبداً، على الرغم من أنني أقول وببساطة إنني ذاهب لمقابلة صديق.

ويقول السائق: «إنه مكان سيئ».

وأسأل: «لماذا؟»

ويقول، ولكن لا يعرض المزيد: «يوجد الكثير من الناس السيئين هناك ليس غير».

وصل هيو جيا من بكين في الليلة الماضية، وحين كنا نقترب من شانغتساي في الثامنة والنصف تقريباً في ذلك الصباح، يجري مكالمة ويخبر سائقي أين نتقابل، في محطة بنزين في خارج البلدة تماماً. وتقف إلى جانبنا عربة على دراجة بثلاثة دواليب (ريكشو)، ويقفز هيو جيا خارجاً منها، وهو يقتادني إلى خارج سيارة الأجرة. والعربة الريكشو عبارة عن دراجة نارية تجر مقطورة صغيرة مغطاة تستطيع أن تحشر فيها أربعة أشخاص. وكان هيو قد علق قطعة قماش على عرض العربة من الخلف قليلاً لكيلا يستطيع أحد أن يرى ما في الداخل. وأخبرت سائق سيارتي أن يرجع ويقابلني هنا بعد ثلاث ساعات.

هناك العديد من سيارات الشرطة على الطرق، وهيو جيا يمسك بشدة الطرف الضئيل من قطعة القماش التي تغطي ظهر المقطورة. عند إحدى النقاط، نقف عند إشارة المرور، وأستطيع أن أرى من خلال الستارة الضئيلة أن سيارة شرطة وقفت خلفنا، على بعد خمس ياردات فقط. وأرفع حاجبي باتجاه هيو جيا وهو يكافح ليمسك قماشه الستارة الضئيلة في مكانها. وهو يبتسم ابتسامة عريضة متخابثة.

وترتج المقطورة على طول مسرب وسخ، ونحن نرتج ونرتد في الخلف، قبل الوصول إلى زقاق صغير في قرية تبعد بضعة أميال خارج شانغتساي. ويرفع السائق الدواليب على عتبة خشبية لباب دخول تقليدي وإلى فناء صغير، يلعب فيه عدة أطفال. وأصر على هيو أن يبعد الأطفال قبل أن أخطو خارجاً. طفل واحد يرى أجنبياً ويخبر أمه يستطيع أن يدمر أفضل الخطط الموضوعة. ويغلق هو بوابة الفناء، ويسود الصمت.

أخرج من العربة، وأصافح يد هيو، وأعطيه تربيتة قلبية على كتفه. إنني دائماً أحب أن أراه. فهو يعطيني الأمل للصين. هيو قصير وممتلئ، وله قصة شعر قصيرة عسكرية، ويلبس بنطالاً قصيراً، وهو أمر غير معتاد للرجل الصيني، مع حزمة كبيرة مستديرة حول خصره. وفي داخلها يمتلك آلة تصوير رقمية، وآلة تصوير فيديو صغيرة، وثلاثة هواتف خليوية جوالة. وهو مرتبط بشبكة من المصادر في كل إنحاء البلاد، يتحدث باستمرار إلى أصدقائه ومعارفه، يغطس ويغوص، ويبحر أحياناً قريباً جداً إلى الريح وفي اتجاهها، يوشك أن يكون على حافة فعل شيء غير قانوني أو غير مناسب، وفي مرات كثيرة يوضع تحت الاعتقال المنزلي، ولكنه يحاول في الغالب أن يبقى أسبق من قوات الظلام على بعد خطوة قبلها.

ويبرز ثلاثة رجال من بيت من آجر من طابق واحد متهدم. وتقدموني ليدلوني إلى الداخل، وأجلس على واحدة من الأرائك الوسخة في غرفة مظلمة، متعفنة لأسمع قصصهم. والرجال الثلاثة كلهم، وزوجاتهم، سبق أن باعوا الدم في مراكز دم نقالة في أواسط التسعينيات.

ويقول لي جينغدا البالغ من العمر اثنتين وثلاثين سنة: «مرضت زوجتي في كانون ثاني/ يناير 2002، وماتت في آب/ أغسطس في السنة نفسها».

لي له كتلة شعر أسود كثيفة، وشارب، ونمو ضئيل من شعر الوجه على ذقنه. وهو لم يقم باختبار نفسه حتى آب/ أغسطس 2004. وقال: «لم أرد أن أعرف،» قال ذلك، على الرغم من أنه كان يعلم في قرارة نفسه، كما قال، أنه سيكون حاملاً لفيروس نقص المناعة بشكل إيجابي.

وهو الآن يتناول خليطاً من الأدوية التي يجري توفيرها من الحكومة المحلية، بعد الضغط من المنظمات الغربية غير الحكومية في بكين. ويقول لنا: «أنا أتناول الدواء، ولكن له آثار جانبية سيئة تجعلني أشعر أنني مريض».

ويقحم هيو نفسه في الكلام ويقول: «ثمانون بالمائة من الفلاحين لا يتناولون الدواء في وقته، لأنه يجعلهم يشعرون أنهم مرضى جداً. إنها مشكلة حقيقية».

ويجلس إلى جانبه لي يونغلونغ، وهو في الثالثة والأربعين من عمره. (وليس له صلة قرابة مع لي جينغدا). (هناك أكثر من 90 مليون نسمة في الصين اسم عائلتهم هو لي). ويقول إنه هو وزوجته باعا الدم ثلاث أو أربع مرات فقط في أواسط التسعينيات من 1990، ولكنهما معاً يحملان فيروس نقص المناعة البشرية بشكل موجب.

ويقول: «لقد أعطونا خمسة وأربعين يواناً (6 دولارات تقريباً) في كل مرة بعنا فيها دمنا. وذلك مبلغ كبير من المال».

والرجل الثالث، جانغ هونغدا، له قصة مشابهة.

حين أسال عن الحكومة المحلية، يجلس الرجال الثلاثة فقط ولا يقولون شيئاً. ليس هناك أي شيء بالنسبة إليهم ليقولوه. ويهز لي يونغلونغ رأسه ببطء. ويقول في النهاية: «الحكومة الآن قد أجبرت على أن تعطينا شيئاً ما. فهم يعطوننا هذه الأدوية، ويعطوننا عشر يوانات (1.20 من الدولارات) كل شهر لتكون نوعاً من المال مقابل الصمت».

ويقول لي يونغلونغ، ولهجته القروية الهوهنانية تنتشر كثيراً عبر حروف العلة التي ينطقها: «السبب الرئيسي الذي جعلنا نبيع دمنا هو الفقر. ذلك هو السبب. والسبب الرئيسي لفقرنا هو أن الضرائب المحلية عالية جداً. والمسؤولون المحليون يفرضون الضرائب على كل شيء. وكل ما يريدون عمله هو جمع المال».

ويشرح هيو جيا: «بالنسبة إلى المسؤولين المحليين، ينظر إلى كل شيء بوصفه طريقة إلى جمع المال، إنه التقليد الصيني. أنت تصير مسؤولاً، فأنت تجمع مالاً. المسؤولون يصيرون بدينين، والشعب يصير نحيفاً».

هنا في هوهنان، توجد مشكلة الإيدز وفيروس نقص المناعة البشرية. في أماكن أخرى في الصين، هناك قضايا مميتة (أو هي أقل إماتة). في كل مكان، مع ذلك، فإن المشكلة الأساسية هي نفسها: المسؤولون المحليون الفاسدون يخلقون مرجلاً من الصعوبة والغضب في الأرياف.

ويقول لي يونغلونغ إن المسألة هي نفسها في كل ناحية من حياة الفلاح. تخطيط الأسرة على سبيل المثال. ويقول إن كثيراً من القرويين يريدون أكثر من طفل واحد، وهم مستعدون لكسر سياسة الطفل الواحد. «ولكن إذا حملت زوجتك مرة ثانية، واكتشفوا ذلك، فسوف يجبرونها على الإجهاض. إذا هربت من مسؤولي تخطيط الأسرة وولد لك طفل، فسوف تغرم غرامة ضخمة. حين ولد طفلي الثاني، لم أكن أملك المال لأعطيهم، ولذلك أخذوا سيارتي التراكتور، التي تساوي أجور العديد من السنوات».

الرجلان الآخران جلسا ببساطة وأيديهم منعقدة.

وأسأل، «هل هناك أي شيء تستطيع أن تعمله لتقنع الحكومة، ولتجعلهم مسؤولين عما فعلوه هنا؟»

ويقول جانغ، «لاشيء. وإذا عارضتهم في أي شيء، فإنهم ببساطة يضعونك في السجن».

وعلي أن أسألهم سؤالاً آخر زيادة عما سبق، على الرغم من أنني متأكد من أنني أعرف الجواب.

«الحكومة المركزية بدأت بالحديث عن حكم القانون. وتقول إنها تريد أن تشجعه. ماذا عنك لو أنك ذهبت واستأجرت محامياً؟»

يقول لي جينغدا، «لا يوجد هناك محام واحد في كل البلاد. ولو كان موجوداً، فالمحامون لن يعبروا عن الناس العاديين ويدعموهم. إنهم سيكونون مجرد يد في قفاز، على ارتباط وثيق، مع المسؤولين».

ويخبرني هيو جيا أن هناك المزيد من الناس الذين يريد مني أن أقابلهم، وهذا يعني عبور البلدة، وهكذا دخلت إلى خلف مرآة العربة الريكشو معه، وأنا لا أعرف بالضبط كيف أستأذن من الرجال الثلاثة الذين قد يموتون في غضون عام.

ونتوجه إلى بيت فلاح آخر، ويقفز هيو مرة ثانية ويدقق أن الشاطئ خال. هنا يوجد ملء الغرفة كاملة من المصابين بالإيدز. إنه منظر فاجع يبعث على الصدمة. خمسة عشر منهم تقريباً يجلسون في صمت. فلاحون عاديون هم تحت حكم الموت بسبب فساد المسؤول، والآن بسبب إهمال المسؤول. ويقدمني هيو إلى دينغ شياومنغ، رجل في الرابعة والثلاثين من عمره ماتت زوجته من الإيدز في العام 2000. وهو أيضاً مصاب. وابنته البالغة من العمر ستة أعوام ماتت في الأسبوع الماضي، كان محزوناً حزناً كاملاً لا يقبل العزاء. ويقول إن ابنته كانت مريضة جداً بالإيدز. في ليلة من الليالي بدأت تتقيأ. وفي ليلتها الثانية، ماتت.

جابه دينغ سلطات المستشفى، وفي عمل من أعمال اليأس والغضب على تدمير عائلته، لامهم على موت ابنته. ويقول إنه وضع جثتها في بهو أمام الناس ليراها الجميع. وطلب منه المستشفى أن ينقل الجثة أو أنه سوف يعتقل. واستدعى هو عائلته وأصدقاءه تعزيزات له، ويقول، ولكن بعد ذلك في ذلك المساء جاء خمسون شرطياً ليأخذوا جثمانها بعيداً لحرقها، كما قالوا. ويقول هيو جيا إنه كان هناك بالواقع حرب تجاذب على جثة الفتاة الصغيرة.

دينغ أشد اضطراباً بسبب هذه الخبرة من أن يكون منفعلاً عاطفياً بعد ذلك. وكان على هيو أن يكمل القصة. الحكومة المحلية ببساطة تنتظرهم ليموتوا. ويقول هيو، وذلك لكي يتوقفوا عن التسبب بالمشكلات وجعل شانغتساي تبدو سيئة.

وأنا أجلس هناك كارهاً للصين ولكل شيء عنها، وأسأل هيو إن كان يجب علينا أن نذهب إلى المستشفى ونجابه السلطات تماماً، ولكنه ينصحني بأننا لن نصل إلى أي نتيجة. ويقول إن الفلاحين الذين نزورهم الآن سوف يعتقلون فوراً، وسوف ننتهي نحن إلى قضاء ليلة في مركز ما للشرطة. جميع الناس الآخرين الموجودين في الغرفة لديهم قصص رعب من المجادلات مع المسؤولين، بصرف النظر عن غضبهم من الكيفية التي أصيبوا بها في المقام الأول.

ويقول رجل في منتصف العمر اسمه هيوانغ، «لا يستطيع أحد منا أن يجد عملاً، وهكذا فنحن لا نملك أي مال من أجل تعليم أطفالنا».

وتقول امرأة في الأربعين وأكثر من عمرها اسمها جانغ، «ومع ذلك، فحين يخرج أطفالنا ليبحثوا عن عمل، يكون من الصعب العثور على عمل. وحين يسمع أرباب العمل أنهم من شانغتساي، لا يريدون أبداً أن يستأجروهم، ولذلك عليهم أن يكذبوا بشأن مدينتهم الوطن».

ونتحدث لمدة أطول قليلاً، ثم إني أغادر القرية بالطريقة التي وصلت بها، في مؤخرة عربة ريكشو مغطاة، التي تقف إلى جانب سائق سيارتي المنتظر في ضواحي شانغتساي. وأدخل مسرعاً لأتجنب أن أُرى ولكني أنزل زجاج النافذة بما يكفي لأصل إلى الإمساك بيد هيو جيا. ويبتسم هو لي، ابتسامة متآمرة، مليئة بالنار وبالرحمة. ثم يقفز هو إلى عربة الريكشو ويذهب.

ومن باب الاحتياط فقط، أستخرج القرص الصغير الذي يحتوي على مقابلاتي من المسجل وأسقطه في لباسي الداخلي، وأضع مكانه القرص الوهمي. بعدئذٍ، بعد أن صرت خارج شانغتساي وخارج العاصمة المحلية، أرسلت رسالة نصية إلى هيو بأني بأمان خارج المنطقة. ويجيبني بأنه متجه إلى الشمال إلى العاصمة المحلية الإقليمية جينغجو، ليلحق بقطار عائد إلى بكين. بعد أيام قليلة، أرسل لي هيو بريداً إلكترونياً ليقول إن الأمن العام المحلي سمع عن زيارتنا بعد أن غادرنا وذهبت الشرطة لاستجواب الناس الذين قابلناهم. ولكن ما من واحد منهم اعترف بمقابلتنا، وهكذا كانت الشرطة عاجزة عن اتخاذ أي إجراء.

وأركب عائداً إلى شينيانغ، وما زلت أستشيط غضباً. وسائق سيارة الأجرة يشكو مرة ثانية من تخلف المنطقة كانت. وهو يتمتم غير راض، «الطرق سيئة، وليس هناك مبان حديثة».

وبالتأكيد لم أفكر قط بأني سأكون سعيداً بالعودة إلى شينيانغ. وحين يتقاطع طريق 107 مع طريق 312 عند تقاطعه القديم جداً، هناك لافتة تقول بشكل يستثير الحزن والشفقة:

منع الإيدز مسؤولية كل واحد

ثم بعد ذلك، أبعد قليلاً على الطريق، الإهانة النهائية. شعار الحزب الشيوعي الصديق للاستهلاكية الجديدة:

ضعوا الشعب أولاً.

9
السلطـة

في 15 حزيران/ يونيو، في العام 1215، اجتمعت مجموعة من خمسة وعشرين باروناً في حقل في إنجلترا الجنوبية. وكانوا بعضاً من أعلى الممثلين لطبقات إنجلترا الإقطاعية، كانوا رجالاً مُنحوا السلطة ليحكموا مناطق من البلاد في مقابل ولائهم للملك، والتزامهم لجمع الضرائب نيابة عنه. وقد جاء البارونات لإجبار جون، ملك إنجلترا، على توقيع وثيقة كانت ستضع قيوداً قانونية على سلطته بوصفه عاهل البلاد.

كان الملك يواجه مشكلة. ففي السنوات السابقة على ذلك، كان قد اختار أن يخوض قتالاً مع البابا وكان قد صدر بحقه حرمان من الكنيسة، وفقد قطعاً من الأرض الإنجليزية السابقة في فرنسا وكان في حاجة ماسة إلى الأموال التي ما كان يستطيع أن يجمعها إلا من خلال البارونات. ولكنهم كانوا غاضبين، ومن أجل ما كانت تستحق، دعم الكثيرون من عامة الشعب البارونات. مفلس ومنكسر تقريباً، عرف الملك أنه لم يكن يملك أي خيار، ولو فقط ليشتري لنفسه الوقت، إلا أن يضع ختمه على الوثيقة، التي ألفها البارونات.

كان اسم ذلك الحقل في جنوب إنجلترا رنيميد، وكانت الوثيقة التي وقعها الملك جون في ذلك اليوم الفاجع من شهر حزيران/ يونيو، طبعاً، هي الوثيقة العظمى، الماغنا كارتا.

وعلى الرغم من أنها عنت بالنسبة إلى الأقنان والمستأجرين للأرض في القرن الثالث عشر في إنجلترا أقل مما عنت بالنسبة إلى الرجال والنساء الذين جاؤوا في الأزمنة بعدها، فالوثيقة العظمى كانت قد دعيت بحق حجر الزاوية للحريات وللديمقراطية التي تمتع بها العالم الأنجلو سكسوني وما بعده. كانت هناك عناصر

أخرى مهمة من الحياة الأوروبية أسهمت في ضبط السلطة المطلقة للملك، وبشكل ملحوظ السلطة الكبيرة جداً للكنيسة، ولكن الوثيقة العظمى صارت نقطة التجمع ضد الجور الملكي. والكثير من القوانين في المملكة المتحدة والولايات المتحدة، المطبقة بعد قرون، التي تحمي حرياتنا بوصفنا أفراداً، برزت مباشرة من بنود الوثيقة العظمى. وإذا أردت أن تتتبع في نهاية الأمر أصول حقوق الإنسان التي تمتع بها الغرب، وأصول النظام القضائي وفكرة أن الملك يمكن أن يكون مقيداً بالقانون، فإنه ليس من المبالغة القول أن كل الطرق تؤدي إلى رنيميد.

وهكذا فالسؤال الذي أقلقني دائماً هو هذا: إذا كانت الصين متطورة على هذا النحو ومتمدنة على هذا النحو ومتقدمة على هذا النحو قبل وقتها (وهو ما كانت)، فلماذا لم يكن هناك رنيميد صينية؟ وأنا أرفع هذا السؤال لا لكي أنتقد التقليد الصيني أو لكي أشجبه، أو لكي أسأل بتبجح لماذا لا تستطيع ثقافات أخرى أن تكون مثلنا. هناك نواح عديدة كانت الصين فيها متقدمة إلى بعيد أمام أوروبة، على أساس التطور التقاني والرفاهية. ولكن لسبب ما، لم يُطوِّر نظامهم قط أي ضوابط حقيقية تفرض على سلطة الدولة، ونظراً إلى أن هذه الضوابط ظهرت في الغرب، فقد صارت نقطة للنزاع بين الطرفين. فموضوع حقوق الإنسان، الذي يلقي بظلاله على الكثير من تعامل الصين مع الغرب، يؤول في لب الموضوع إلى السلطة غير المقيدة للدولة الصينية.

وبقدر ما أستطيع أن أستنبط، فإن أسباب هذه التركيبة السياسية المستمرة ثلاثية: أحد الأسباب سياسي، وأحد الأسباب أيديولوجي، وأحد الأسباب اجتماعي، ولها جميعها جذورها في العاصمة القديمة للصين، شانغآن، وهي المعروفة الآن باسم شيان.

في أثناء حكم أسرة تانغ، في القرنين السابع والثامن بعد الميلاد، وحين كانت أوروبة فوضى نكدة من ملوك وأمراء يتنازعون، كانت شانغآن (وكان اسمها يعني «السلام الدائم») أكبر مدينة في العالم وأكثرها تنوعاً وعالمية، وكان سكانها أكثر من مليون نسمة. وفي ذروة عصر النهضة كذلك، بعد ست مئة سنة، لم تكن المدن الأوروبية

الكبيرة مثل البندقية تضم أكثر من 180.000. نسمة تقريباً. وفي أثناء حكم أسرة مينغ (1368 - 1644)، بعد أن نقلت عاصمة الصين إلى الشرق، أعيد تسمية المدينة باسم شيان، وهو يعني «السلم الغربي». وحديثاً أخذت حكومة شيان المركزية، وشيان تنظر إلى اجتذاب دولار السياح، ورقة من كتاب العمل الروماني، وبدأ المسؤولون يدعونها المدينة الخالدة. وحين تنظر حولك إلى تراث تخطيط المدن في الخمسينيات من 1950، تشعر كأنما ذلك قد مطها قليلاً. ولكن شانغآن من الناحية التاريخية، والسياسية، والفلسفية، والفنية، وطوال ألف عام، حتى القرن العاشر تقريباً، كانت هي أثينا وروما مجتمعتين.

وصلت إلى محطة حافلات الركاب في شيان متأخراً في الليلة السابقة، بعد ركوب لمدة تسع ساعات من هوهنان الجنوبية. وذلك تقريباً هو طول الزمن الذي تريد أن تمضيه في حافلة ركاب صينية مزدحمة، وخصوصاً حين يحاول السائق أن يحطم الرقم القياسي للسرعة الأرضية. وهو يسوق في الظلام، وعلى طرق ملتوية.

مقطع الطريق 312 الممتد بين مقاطعة هوهنان الجنوبية وبين شيان هو المقطع الذي تواجه فيه الطريق لأول مرة هضاباً من أي نوع. لا شيء جبلياً جداً، ولكنه هضبي بما يكفي لمدرجات الرز الأولى لتكون مرئية على الجانبين. وبعد مغادرة أزيز الشاطئ في الخلف، كان الطريق عبر قلب أرض الصين الزراعية رصيناً، وجامداً، ورفيقاً يبعث على السأم تقريباً عبر مناظر طبيعية ذات درجة حرارة منسجمة. في هذه المرحلة من الرحلة صارت الطريق أكثر مغامرة قليلاً واكتسبت بعض الصفة وهي تتسلق في هضاب مقاطعة شا آنسي الجنوبية الشرقية، متجهة نحو العاصمة القديمة.

سجلت وصولي في رابطة الشباب المسيحي في شيان، ودهشت لرؤية آية الإنجيل محفورة فوق المنضدة الأمامية، بل زادت الدهشة أن أجد رزمة من الواقيات الذكرية موضوعة إلى جانب سريري وهي مدرجة على قائمة تسعير البار الصغير. بعد نوم ليلة جيدة، نهضت وتوجهت لأرى مناظر شيان.

بعدد من السكان يبلغ تقريباً 3 ملايين نسمة، تشكّل شيان اليوم، على السطح مجرد مدينة صينية كبيرة أخرى، تحاول أن تشد نفسها إلى الأعلى بمبادرتها الخاصة. وعبر المدينة، مع ذلك، لمحات من الماضي تطل من خلال المظهر الخارجي للحداثة: جدار المدينة الأصلي، الذي ما زالت تستطيع أن تُسيّر نحوه جيشاً، والمسجد القديم، المبني مع حافات السطح البارزة الممتد في الهواء، وممرات مقنطرة ومن دون مآذن، وبالطراز المعماري الصيني بشكل كامل. وفن العمارة الحديث في شيان هو نوعاً ما أقل إمتاعاً. فالمعماريون هنا، كما هو في كل مدينة صينية، قد تفوقوا على أنفسهم في صرف النظر عن تراثهم الخاص الرائع وبناء بعض الخليط من المقلدات الممسوخة مما يفكرون بأنه حديث. وعلى الرغم من ذلك، فإنها مدينة سارة بما يكفي، كذلك، لتتجول فيها، إنها جزيرة أخرى للرفاهية الحديثة في بحر من المشكلات الريفية. بعد تجوال الصباح، أتوجه لأرى الجاذب الرئيسي للسياح في شيان، وهو على بعد ركوب ساعة في حافلة الركاب إلى الشمال الشرقي من المدينة، وهو موقع يزوره آلاف الناس في كل يوم.

كان جيش تيراكوتا (التماثيل الجنائزية للجندي والحصان) قد أنشىء لحراسة قبر الإمبراطور شين شوهوانغ، وهو شخصية حاسمة في التاريخ الصيني. كان شين أول رجل يوحد الصين، في العام 221 قبل الميلاد، وهو يذكر بهذا الشكل بوصفه إمبراطور الصين الأول. وهو الذي وحد نظام كتابة الصين، وأوزانها ومقاييسها، وعملتها وبدأ يبني أجزاء من الجدار العظيم. ومن اسمه Qin (الذين كان يلفظ شين، وسابقاً كان يهجأ Ch`in) من اسمه يشتق الاسم الإنجليزي تشاينا، الصين.

وجيش محاربي تيراكوتا قد حوِّل ليكون واحداً من النواحي الكبيرة في الصين لجذب السياح وهو معروض في ثلاثة مبان ضخمة. هناك سياح من كل أرض، والكثير من الصينيين أيضاً، محشورون في الممشى المعدني الطويل الذي يلتف حول حافة أضخم قاعة للعرض. والقاعة هنجر بحجم ملعب كرة قدم، والأشكال بحجم طبيعي للجنود، وكلها مصنوعة من الطين، ومصفوفة في صفوف في منطقة ضخمة مفتوحة تحت الممشى.

هناك ما يقارب ثمانية آلاف محارب في المجمل، وهم يشكلون منظراً هائلاً. وهم يقفون في الممرات الطويلة التي وجدوا فيها، ورؤوسهم على صف مع قمم الخنادق، التي يصل عرض بعضها إلى عشرة أقدام في عرضه. بعض الجنود سقطوا، وبعضهم سحقوا، ولكن الأغلبية منهم واقفة، وكأنهم في تشكيل عسكري. وهناك عدة أنماط من الأشكال ـ النبّالة، والمشاة، ورجال القوس والنشاب ـ وكل نوع مخصص له مكانه في الصفوف، وكل شكل له تقاسيم وجهِيّة مختلفة، وهو ما يؤثر بي بوصفه درجة مذهلة من الفردية بالنسبة إلى القرن الثالث قبل الميلاد.

اكتشفت أشكال جيش تيراكوتا في العام 1974، داخل غرفة تحت الأرض، على أيدي جماعة من الفلاحين الذين كانوا يحفرون بئراً. وبناء على ذلك وجد قبوان آخران، ووضعا في هناجر، مجاورة للمحافظة عليهما. وهناك خيل مع جيش تيراكوتا أيضاً، وعربات مزينة زينة غنية ومصنوعة من البرونز. ووجدت الأسلحة أيضاً، مصبوبة من خليطة معدنية غير معتادة من ثلاثة عشر عنصراً، وهو ما يعني أنها أسلحة مازالت حادة حتى اليوم. وهي كلها مؤثرة للغاية، مثل أعمال الفن الروماني التي تجعلك تفكر كم كان أولئك القدماء متقدمين، منذ كل هذه السنوات.

من ناحية الحديث من وجهة نظر علم الآثار القديمة كان جيش تيراكوتا مجرد فاتح للشهية. فالطبق الرئيسي من الوليمة هو المفترض أن يكون قبر الإمبراطور نفسه. ويقال إن القبر قصر واسع تحت الأرض استغرق ما يقارب 700.000 عامل مجند أكثر من ستة وثلاثين عاماً لإكماله، مع نماذج لقصور تحت الأرض وفسطاطات، بل أبحر من الزئبق لمضاهاة نهر يانغسي والنهر الأصفر. وأنا أقول «المفترض أن يكون» لأنه حتى الآن لسبب غريب ما، لم يتم الحفر عنه، على الرغم من أن السلطات تعرف معرفة دقيقة أين هو.

وعلى أي حال، فالموضوع ليس متصلاً إلى ذلك الحد بالكيفية التي يبدو عليها القبر، لأن الإمبراطور الأول للصين كان بوضوح سيعطي نفسه شيئاً ما أكثر من مجرد جنازة هادئة للأسرة وللأصدقاء الأقربين. الموضوع هو أن هذا الرجل شين نجح في تنفيذ واحد من الأعمال الحاسمة في التاريخ الصيني المبكر، وهو بالتحديد توحيد الصين لأول مرة.

في العام 230 قبل الميلاد، كان هو الحاكم لمجرد واحدة من سبع دول كانت موجودة في شمال الصين، دول كانت هي نفسها قد تشكلت من عشرات من وحدات أصغر. والصين كما نعرف اليوم لم يسبق لها أن كانت موحدة، وفي الحقيقة فإن الفترة الممتدة من 403 قبل الميلاد إلى توحيد شين، في 221 قبل الميلاد، كانت تعرف بفترة الدول المتحاربة، وتوحيده لها مازال موضع ترحيب من الحزب الشيوعي.

وأنا لست مقتنعاً أنه كان حدثاً رائعاً، مع ذلك. فتوحيد شين هو السبب الأول، السبب السياسي، الذي من أجله لم يطور نظام الصين قط الزواجر والضوابط التي برزت في نهاية المطاف في أوروبة. فشين لم يوحد الدول من خلال المفاوضات البارعة أو الدبلوماسية الماكرة، وإنما بضرب الكثير من الرؤوس معاً بشدة نوعاً ما مع استخدام أقل من انتقائي لتلك الأسلحة المصنوعة من خليطة ثلاثة عشر عنصراً. والعقيدة التي احتضنها في الغزو وفي الحكم كانت معروفة باسم القانونية. وهي ليست عقيدة من القوانين، والمكافآت، والعقوبات التي جلبت الطاعة. إن عنف شين، ووسائل الغزو القاسية، على كل حال، لم تبرهن على أنها أفضل وسيلة لحكم البلاد الموحدة حديثاً، وحين مات فجأة، في التاسعة والأربعين، في العام 210 قبل الميلاد، انتهت أسرة شين بعد أحد عشر عاماً فقط.

ولكن شين شوهوانغ كان قد وضع سابقة مهمة جداً، استمرت حية إلى هذا اليوم وهي: أن الصين يجب أن تبقى موحدة. لقد تمزقت إلى أجزاء مرات عديدة بين ذلك الوقت وبين الآن، ولكن شخصاً ما قال في كل مرة، «يجب أن يعاد توحيد الصين»، وانطلق يفعل ذلك. والرئيس ماو كان هو أحدث واحد فقط في صف طويل من الموحدين، ولو كان قدر للإمبراطور شين أن يعود إلى الصين اليوم، لاعترف بطريقة الحكومة المستخدمة من الحزب الشيوعي.

يجب علي أن أقول إنني أجد هذه الفكرة مروعة نوعاً ما، وهي أن ألفي سنة من التاريخ قد لا تكون فعلت شيئاً لتغيير النظام السياسي للبلد. تخيل أوروبة اليوم وتخيل أن الإمبراطورية الرومانية تسقط، وأنها مازالت تغطي مساحة تمتد من إنجلترا إلى شمال إفريقية والشرق الأوسط وكانت تدار من شخص واحد يقيم في

روما، وهو مدعوم من جيش ضخم. هناك لديك تقريباً، الصين القديمة والحديثة. وحقيقة أن هذه التركيبة لم تتغير، أو كانت قادرة على التغير، في ألفي عام حقيقة يجب أن يكون لها مضامين ضخمة للسؤال: أتستطيع الصين في أي زمان أن تغير نظامها السياسي؟

التشبيه الروماني تشبيه مناسب. فالاتجاه هو إلى التفكير بالصين الحديثة على أساس الولايات المتحدة الأمريكية، بسبب تشابههما بالحجم الجغرافي. وفي الحقيقة، أن أفضل مقارنة حتى الآن لفهم الصين اليوم، هي الإمبراطورية الرومانية منذ ألفي عام، أي: كثيرون من الناس بلغات ولهجات مختلفة، وعادات مختلفة، وأساليب فنية مختلفة، بل مطابخ مختلفة، كلها مع تراث مشترك ولكنها ممسوكة معاً في نهاية المطاف بالقوة. وليس هناك معنى في القول إنك خارج لتناول وجبة صينية أكثر من المعنى في قولك إنك ذاهب لتناول وجبة أوروبية.

والتفجعات التي تسمعها باستمرار من أن البلاد كبيرة جداً وأن هناك شعوباً عديدة جداً يمكن أن يقع اللوم فيها على شين شوهوانغ. ففي ضربة واحدة، لم يخلق فقط هاتين المشكلتين بل تحقق من أنهما ستكونان خالدتين عبر التاريخ الصيني. لقد «خلق بلاداً» كانت تحتاج إلى رجل قوي على القمة لكي يمسكها معاً، وذلك المتطلب استبعد وضع أي قيود على سلطته. وعلى القمة من ذلك، أحرق كل كتب العلماء، ثم قتل العلماء أنفسهم، وبهذا أطلق سابقة أخرى بالنسبة إلى الكيفية التي تعامل بها مع أي شخص تحدى سلطة الحاكم. هذا هو، طبعاً، الموقف نحو الانشقاق والذي مازال مستمراً اليوم. الأوقات الوحيدة التي كان فيها الاختمار الفكري والمناقشات الفكرية ممكنة هي الأوقات التي لم تكن فيها الصين موحدة (مثل فترة الدول المتحاربة قبل الإمبراطور شين، أو في أثناء العشرينيات من 1920 والثلاثينيات من 1930 بعد فشل ثورة 1912). وفي كل الأوقات الأخرى، ومن جملتها الآن، كان يفرض الرأي المعتمد بالقوة.

والسبب الثاني في أن القيود على سلطة الدولة الصينية لم تتطور قط هو سبب أكثر اتصالاً بالفلسفة برز في أثناء أسرة هان، التي تبعت شين. فأسرة هان كان

لها أيضاً عاصمتها في شانغآن، وهي اليوم مدينة شيان، ودامت حتى العام 220 بعد الميلاد. قامت أسرة هان، وهي تعي المشكلات التي سببها الحكم بقسوة شديدة، بأخذ عناصر من فكرة شين القانونية، الضرورية للسيطرة، وأضافت إيديولوجية كانت تستطيع بشكل حاسم أن تشرعن سلطة الدولة. والإيديولوجية كانت هي الكونفوشيوسية. ففي العام 124 قبل الميلاد، تأسست أكاديمية إمبراطورية علمت الأساسيات الكونفوشيوسية الكلاسيكية وجعلتها الأساس الذي تؤخذ منه الامتحانات الكتابية المستخدمة لاختيار العلماء ليخدموا في الخدمة المدنية.

هذا العمل المضاعف من الكونفوشيوسية زائداً القانونية كان هو النسخة الصينية المبكرة من التحدث بلطف، ولكن مع حمل العصا الغليظة. لقد غرست هذه النسخة الصينية جذوراً عميقة طوال أسرة هان، بل غرست جذوراً أعمق في أثناء أسرة تانغ في شيان، في القرنين السابع والثامن ودامت لمدة ألف ومائتي عام أخرى بعد ذلك، حتى بداية القرن العشرين.

كانت إحدى العواقب الحاسمة لهذا الدمج الفلسفي، بخلاف ما كان في أوروبة، هي أن كل الرجال المتعلمين الصينيين تقريباً كانوا في الخدمة المباشرة للدولة. وكان قد تم إنجاز هذا التوظيف من خلال الامتحانات في كلاسيكيات الكونفوشيوسية ومن خلال إضعاف سلطة الكنيسة البوذية كذلك. (وجود الكنيسة المسيحية في أوروبة، وهي في الغالب خارج سلطة الملوك، كان حاسماً في تطور الزواجر والضوابط على السلطة الأوروبية الملكية. وهي أيضاً نشّأت الرجال المتعلمين الذين لم يكونوا ملتزمين بالقسم بالولاء للملك).

من الناحية الفلسفية لم تثق الكونفوشيوسية بمفهوم القانون. وهي مستندة إلى تعاليم رجل اسمه كونغ فو زي، أو السيد كونغ، مات في العام 479 قبل الميلاد، قبل عقد من مولد سقراط، وكانت مقدمته المفترضة هي أن المجتمع يجب أن يُجعل في انسجام مع النظام الكوني عن طريق الالتزام بمبادئ أخلاقية معينة. وكان يفترض أن تكون هذه المبادئ متمثلة في سلوك الحكام والمسؤولين. وقد دعا المؤرخون الغربيون هذا باسم «الحكم بالفضيلة» أو «الحكم بالمثال والقدوة،» وكانت في تضارب مع

المحاكم والقضاة والتركيز على «الحكم بالقانون»، وبعد ذلك «حكم القانون» الذي نما في الغرب. لقد قال كونفوشيوس: «حين يكون السلوك الشخصي للأمير صحيحاً، فإن حكومته تكون فعالة من دون أن يُصدر الأوامر. وإذا كان سلوكه الشخصي غير صحيح، فإنه قد يُصدر الأوامر ولكنها لن تكون قوانين متبوعة».

لقد كانت القيادة في الصين دائماً أكثر من أي شيء آخر حول محاولتك أن تعيش حياتك بوصفك قدوة أخلاقية وأقل من ذلك حول الوقوف ومخاطبة الناس وإخبارهم بما يجب عليهم أن يفعلوه. وكانت الكلمة المكتوبة تمتلك دائماً قوة أكبر من الكلمة المنطوقة. ويحتمل أن يكون هذا هو السبب الذي من أجله لم يكن هناك قط خطباء صينيون عظماء. وحتى هذا اليوم، تندر الخطابات العامة أو الخطابات بالتلفاز من طرف القادة، واحتمال أن تبث السياسات المهمة من خلال افتتاحية في صحيفة يومية للشعب أكبر من احتمال بثها من خلال خطاب يوجهه الرئيس إلى الشعب.

وإحدى المشكلات الكبيرة مع الكونفوشيوسية بوصفها فلسفة حاكمة، مع ذلك، كانت إصرارها على أن الإنسان بطبيعته خيرٌ، ولذلك فهو قابل للتعليم وقابل ليكون كاملاً. ويجب على الفرد أن يراقب نفسه («يصحح نفسه» في التعابير الكونفوشيوسية) لكي يصير أكثر فضيلة. غاية تستحق الإعجاب، بلا شك، ولكن الطبيعة البشرية وكونها ما هي عليه، أدت مع فقدان الزواجر والضوابط الخارجية على السلطة إلى الفساد التدريجي للأسر على طول التاريخ، وصولاً إلى الحزب الشيوعي الحاكم في هذا اليوم. الحزب متعفن حتى النخاع بالفساد، ولكنه طبعاً لا يستطيع أن يفعل أي شيء بشأنه، لأنه إذا وضع أي زواجر وضوابط مستقلة، فسوف يخسر احتكاره للسلطة.

والمشكلة الكبيرة الأخرى كانت طبعة الكونفوشيوسية المعتمدة المستقيمة. فخلافاً للمسيحية، التي تنظر بأمل إلى يوم الحساب في وقت ما في المستقبل، تنظر الكونفوشيوسية إلى الخلف إلى عصر ذهبي في الماضي وتحاول أن تقلده وأن تعيد خلق ذلك الزمان. وفي حين تريد المسيحية، وخصوصاً المسيحية البروتستانتية، أن تقهر الشر وتعيد عالماً مختل النظام إلى المسار الصحيح، تميل الكونفوشيوسية إلى قبول العالم كما هو، وتحاول أن تنظم العلاقات الإنسانية داخل العالم. وهكذا فعلى الرغم

من أن أسرة تانغ رأت العديد جداً من الاختراعات المدهشة، بقيت، على ما سماه العالم المختص بالصين جوزيف ليفينسون «عنقوداً رائعاً من الخلاصات العلمية، ولكنها ليست تقليداً منسجماً من العلم المتدفق إلى التيار العالمي». ولتفسير الأسباب التي من أجلها لم تزهر المكتشفات العلمية الصينية ولم تصر ثورة علمية، يكتب ليفينسون، «ليس السبب أن أجدادهم كانوا دستورياً عاجزين عن تنشئة تقليد نام للعلم، وإنما بسبب أنهم لم يهتموا بذلك». ويقول لم يكن للعلم مكانة اجتماعية، وما كان يمكن قط أن يخطر للعلماء الصينيين التقليديين أن الثناء كان يمكن أن يُكتسب من ادعاء الاكتشافات أو الاختراعات. والقدماء لم يوجهوا مثل هذه الاختراعات إلى تقانات تغيير العالم، فلماذا نفعل نحن؟

بل إذا كان من المسموح به أن نبحث عن بطانة فضية للغيمة السوداء من الشيوعية الصينية في القرن العشرين، فإنك تستطيع القول إن الشيوعية الصينية تصرفت بوصفها إصلاحاً دينياً وتنويراً للصينيين في تدمير قيود الفكر القديم المعتمد وتحريرهم ليتطوروا. ربما ليس من المسموح به أن نقول ذلك، لأن التكلفة كانت عالية جداً، ولكن كان من الأسهل على الصين أن تتخلص من فكرها القديم المعتمَد، أسهل، على سبيل المثال، مما على العالم الإسلامي أن يفعل، لأن الفكر الصيني القديم المعتمَد لم يكن يؤمن بأنه موحى وحياً إلهياً.

مع تخفيض سلطة الكنيسة والكونفوشيوسية الإمبراطورية في المكان المناسب، بقيت هناك مجموعة واحدة مشكلة فقط من الناس الذين قد يحاولون أن يقيدوا أسلوب الإمبراطور ونخبته الكونفوشيوسية، وهي مجموعة الأرستقراطية نفسها، وهي المكافئ الصيني للبارونات المزعجين الذين كانوا قد راقبوا الملك جون وأرغموه على توقيع الوثيقة العظمى (الماغنا كارتا) في حقل رنيميد. وهذا، أخيراً، هو السبب الثالث، السبب الاجتماعي الذي من أجله لم تنشأ الزواجر والضوابط على السلطة الإمبراطورية والبيروقراطية. الإمبراطور وكبار موظفيه دمروا الأرستقراطية.

كان البارونات يستطيعون تحدي الملك جون في حقل رنيميد لأنهم فقط كانوا يمتلكون قوة مادية، وذلك نتيجة للتركيبة الإقطاعية في إنجلترا في القرن الثالث

عشر. الصين في القرن الثامن كانت في الحال نفسه، وكانت أسرة تانغ في الأصل طوال عصر مع أرستقراطية قوية. ولكن التمردات الإقليمية وسوء السلوك العام للأرستوقراطية أقنع الإمبراطور وبيروقراطيته في أسرة تانغ المتأخرة، وأسرة سونغ، التي تبعت (960 ــ 1279)، أقنعه بكسر قوة الأرستوقراطية، التي لن تستعيد القوة أبداً. ومن المثير للعجب بالنسبة إلى مثل هذا المجتمع المتدرج هرمياً، أن الحكومة أمرت بأن توزع أرض العائلة بالتساوي عند موت الأب لمنع دمج ممتلكات كبيرة من الأرض في أيدٍ خاصة. هذا هو السبب الذي من أجله لم يكن هناك بيوت كبيرة في الريف وممتلكات وعقارات ضخمة في الصين مثلما كان يوجد في كل أنحاء أوروبة. وبعد أسرة تانغ، لم يكن مسموحاً لمثل هذه العائلات ببساطة أن تظهر.

ولم يبن الأوروبيون بيوتاً ريفية فقط، ولكنهم بنوا كذلك طرقاً مختلفة للرفاهية والاحترام ـ الكنسية، والقانون، والأعمال التجارية، والقوات المسلحة. وأما في الصين مع نهاية القرن الحادي عشر، وعلى الرغم من الحقيقة المتمثلة في كون الصين هي أكثر الحضارات المُتَحْرَنَة والمتحضرة على وجه كوكب الأرض حتى ذلك الوقت، فقد صار المسار الرئيس، والوحيد تقريباً إلى الرفاهية والاحترام هو أن يصير الشخص مسؤولاً من خلال نظام الامتحان الكونفوشيوسي.

وعلى الرغم من أن الصين انتُقِدت بالنسبة إلى تاريخها من حكم الفرد المطلق، فمن المثير للتهكم، أن تأكُّل سلطة الأرستقراطية ومؤسسة البيروقراطية الكونفوشيوسية عنت أنه كان هناك حراكية اجتماعية في الصين أكثر بكثير مما كان موجوداً في أوروبة القروسطية. السلطة لم تكن وراثية. كانت توزع من خلال الامتحانات، التي كان أي شخص يستطيع أن يدخلها.

ولا بد أن يكون هذا واحداً من الأسباب التي من أجلها ما زال يوجد الكثير من الانتباه الموجه إلى التعليم (والامتحانات) في الصين في كل المجتمعات المستندة إلى الكونفوشيوسية، تماماً مثلما يوجد في المجتمع المشابه في الولايات المتحدة المستند إلى المقدرة. وهذا مختلف جداً عن بريطانيا وأوروبة، حيث كانت الجامعة تاريخياً مجرد إعداد للكنيسة أو لإنهاء المدرسة من أجل الطبقات العليا (الوراثية). حين أخبرت

الناس في إنجلترا بأني كنت ذاهباً إلى الولايات المتحدة لأدرس دراسات عالية، كان الرد عموماً «لماذا؟ ألم تذهب إلى المدرسة لمدة كافية من قبل؟» لا يوجد صيني أو أمريكي يمكن في أي وقت أن يسأل مثل هذا السؤال.

والسؤال الكبير الآن، مع ذلك، هو هل كانت الصين سوف تتغير وتسمح بالحكم المستقل للقانون أن يترسخ، بعد أن اصطدمت الحكومة الصينية مع حضارة تمتلك فعلاً حكم القانون، وبعد أن تم جرها وهي ترفس وتصرخ إلى عالم معولم تكون فيه العقود والمحاكم والاستقلال القضائي مهمة، هل ستبدأ الحكومة الصينية بالسماح ببعض القيود على سلطة الدولة؟

أو، وهو أكثر أهمية، ومع كل ذلك الحمل التاريخي والفلسفي هل تستطيع أن تسمح بمثل هذه القيود؟ أنا لست متأكداً من أنها تستطيع. وأنا أعتقد أن القيود على سلطة الحكومة قد تكون مناقضة لكل مفهوم الصين، ولوجودها بصفتها دولة. وأعتقد أن الحاجة إلى حكم الفرد المطلق لمجرد مسك الصين معاً فقط ربما قد تجعل البلاد غير قابلة للإصلاح بشكل أساسي، وعاجلاً أم آجلاً فإن طاغوت الاقتصاد سوف يضرب بشدة ضد جدار التاريخ الصيني الذي لا يقبل التحرك.

ولكنني لست متأكداً. ولو وجد شيء من مثل هيئة المحلفين في القضاء الصيني، لاعتقدت أنه سيبقى في الخارج من ذلك القضاء.

سو جونغشو يفتح حاسوبه، حاسوب الحضن (لاب توب) ليريني بعض النسخ الرقمية من فنه الصيني المفضل. وينقر على نقطة اتصال، وتقفز فجأة صورة جثتين لطفلين صغيرين إنسانيين، مسندتين معاً مثل تماثيل المحلات التجارية، للمشاهدة في معرض في بكين.

وأتجنبها مبتعداً عن الصورة، متقززاً.

وهو يبتسم. وينتقدني: «أترى. أنتم، الغربيين، رقيقون جداً، وناعمون جداً».

سو فنان طليعي وهو يدرِّس الفن أيضاً في جامعة في شيان. ونحن نتقابل في غرفة شاي في مركز البلدة. وهو رجل طويل له ابتسامة مضحكة، ولكنك لن تعرف من مظهره العادي عن ذوقه المذهل في الفن الحديث.

وصلت إلى شيان وأنا أفكر في أنني سوف أستغل الفرصة لاستكشاف المشهد الثقافي للمدينة، ومن خلال صديق لي، صادفت مجموعة من الفنانين والمصورين، ومن جملتهم سو جونغشو.

والفن، مثل أشياء أخرى كثيرة غيره في تاريخ البلاد، كان ضحية للفكر الصيني المعتمد التقليدي. ففي وقت ما يقارب أسرة تانغ من القرن الثامن، تم وضع الأسلوب الرسمي، وكان الفنانون الصينيون طوال الاثني عشر قرناً التي تلت قد حاولوا مضاهاته. وذلك لا يعني أنه كان أسلوباً سيئاً للرسم. فهو مثل نظام البيروقراطية الكونفوشيوسية للحكومة، كان جيداً جداً، وكان بالتأكيد متقدماً إلى حدٍ كبير أمام ما كان يجري في أي مكان آخر في العالم. ولكن المشكلة مع الفن مثلما هي مع البيروقراطية الحكومية، هي أنه بقي على تلك الطريقة لأكثر من ألف عام.

ومن المؤكد، كانت هناك فترات من إعادة القوة للتقاليد الصينية عبر العصور، ولكن يمكن القول على وجه العموم، إنه لم يكن هناك أي تصور للحاجة إلى عصر نهضة، وذلك لأن كل الحياة الصينية كانت من قبلُ واحدة من العمليات الكبيرة لإعادة إفراغ مادة قديمة في قالب جديد من الفن، والأدب، وتعليم القدماء.

الفن الصيني التقليدي قال الكثير عن رؤية العالم الصينية. وفي حين كان شخص المسيح قد ركز الكثير جداً من الفن الغربي على الشكل الإنساني، كان الفن الصيني دائماً عن المناظر الطبيعية بشكل أكبر ـ عن الجبال والأنهار ـ مع لعب الأشكال الإنسانية مجرد أدوار صغيرة في الدراما الطبيعية وفي عظمة الرسم.

الكونفوشيوسية التقليدية المعتمدة تحطمت، ووقع كل تقليدي تحت الهجوم، وتمتع الفن الحديث بازدهار مختصر في المدن الكبيرة في الأيام المتهورة في العشرينيات من 1920 وفي الثلاثينيات من 1930. ولكن الفن آنئذٍ، مثل كل شيء غيره، أخضع للاحتياجات التقليدية المعتمدة الشيوعية الجديدة، وخرج الفن من أجل الفن من النافذة.

في الثمانينيات من 1980، في الفن مثلما هو الحال في مجالات عديدة جداً، ظهرت الصين من قوقعتها الماوية، وحاولت أن تجد حلاً لمسألة من أين تستأنف فنها من بعد ثلاثين عاماً من الهجوم على الثقافة الصينية التقليدية؟وكانت النتيجة خلطة من عودة إلى الأشكال الصينية الراسخة وتقدم سريع إلى الأمام إلى أسلوب ما بعد الحداثة بشكل كامل، وهو ما يدفع حدود الفن إلى أكثر مما هو بعد الحداثة الغربية كذلك. وإذا كان الفن الصيني التقليدي مغروس الجذور جداً في التراث، فإن الفن الصيني الحديث يواجه خطر الاقتلاع بالكامل من جذوره. وهذا لم يوقف الفن الصيني المعاصر من أن يصير دارجاً بشكل كبير حسب الطراز الحديث بين أغنياء الصين الجدد، وعالمياً أيضاً. ففي شهر تشرين الثاني/ نوفمبر 2006، بيع رسم للفنان الحديث ليو شياودونغ في مزاد بكين بمبلغ 2.7 من ملايين الدولارات.

وسألني سو: «وهكذا فمن تحب أنت؟»

«إ إ إ... جاكسون بوللوك؟» وأنا أعرض للقبول، وأنطق وكأنني أصرخ في خمسين سنة متأخرة فيما بعد نقاش ما بعد الحداثة.

ويقول: «إنه وسط نوعاً ما. ماذا عن ديا ميان هي سي تي؟»

«من ؟»

«ديا ميان هي سي تي. لقد عمل ذلك الشيء مع سمكة القرش».

وهو يرفع حاجبيه. بالتأكيد أنا لا أستطيع أن أكون ذلك الخاسر بأني لم أسمع عن ديان ميان هي سي تي.

وأستنقذ صدقيتي «داميان هيرست !»

ويقول: «صحيح. أنا أحبه».

ويستمر سو قائلاً «أنتم، أنتم أيها الغربيون، جئتم لنا بتصور جديد للفن. هذه الفكرة، فكرة تحدي العيون. اعتاد فننا أن يكون كله عن الانسجام، مثل مجتمعنا، جبال، وماء، ومناظر طبيعية، والتوازن. اعتاد أن يكون منفصلاً عن العمل القذر

للحياة الحقيقية. بعدئذٍ قال فنانوكم: نريد أن نتحدى الأخلاقيات الغربية بفننا، وقد فعلوا. وهذا طبعاً سبب عاصفة. لماذا؟ لأنكم، وبرغم أنكم أحرار في الغرب في أن تكونوا ملحدين، وأحرار في أن تكونوا هجوميين إن شئتم ذلك، فليس كل واحد منكم كذلك. مازال يوجد الكثير من المؤمنين المتدينين. وهنا، مع ذلك، لا يوجد دين، ولا حساسية بشأن ذلك النوع من الأشياء. كل شيء ممكن. والآن يقول الفنانون الصينيون: «نحن نستطيع أن نفعل هذا، نحن ماركسيون وملحدون، نحن نستطيع أن نفعل هذا، ونحن نستطيع! ونحن نفعل!»

وبدا هذا مشابهاً للمناقشة التي طرحتها بيه شا، مقدمة البرنامج الإذاعي للمقابلات في شانغهاي. والفكرة هي أنه لا يوجد أي شيء بعد الآن في الصين يحدد التقليد المتبع، في الأخلاقيات أو في أي شيء عداها، ولذلك فالناس يفعلون ما يريدونه لا غير.

«لقد أتقنا نحن الحداثة التي أدخلتموها، وهل تعرف لماذا؟» ويخفض سو رأسه ويرفع حاجبيه ثانية، وهو يتحدث مثل رجل نادراً ما كان لديه أي شخص ليصغي إلى نظرياته».لأن الحياة هنا في الصين قاسية. وهكذا فالفن مجرد مرآة للحياة. مرآة للحياة والموت، والحب والبغضاء، والجنس والعنف. الناس في البلدان الأخرى لا يواجهون الضغط للبقاء على قيد الحياة مثل الضغط الذي يواجهه الشعب الصيني. في الغرب، أنتم لا قضايا لديكم، لا مشكلات، ولديكم تعليم حر، لديكم رعاية صحية، تملكون كل شيء. وهكذا فإن فنكم مثير جداً للسأمة. هنا، يكون هدف الفنانين الحديثين هو التعبير عن أنفسهم. يريدون أن يخلقوا نوعاً من الحرية السياسية من خلال فنهم. نحن لا نستطيع أن نعبر عن آرائنا في الكثير من القضايا السياسية، ولكننا نستطيع أن نفعل ذلك من خلال فننا».

وأنا أسال: «ولكن هل يهتم أحد بذلك ؟»

يتوقف مع ابتسامة وتنهد حسرات. «لا. وتلك هي النقطة. تلك هي المشكلة. الفن ترف. ولا يمكن تقديره إلا من أناس بلغوا مستوى معيناً من المعيشة فقط. الأسماء المائة القديمة يريدون فقط أن يكسبوا مالاً كافياً ليعشوا بسلام. ليس لديهم رغبة في أن يعبروا عن أنفسهم من خلال الفن، أو أن يقدروا الناس الذين يفعلون».

وبعدئذٍ يحوّل سو الكلام ويربط ربطاً كاملاً الحاجة إلى الحرية الفنية والإبداعية مع مستقبل الصين. «لا تستطيع الصين أن تصير البلد القوي والغني الذي تريد أن تكونه إذا لم تسمح بالمزيد من التفكير الخلاق. طبعاً، الفن هو جزء من ذلك. الفن يساعد على تطوير خيال الناس وإبداعيتهم».

وهو يقول إنه، قبل أيام فقط، كان قد رأى قصة في الأخبار في الإنترنيت تروي أن الرجل الذي ساعد الصين على تطوير القنبلة الذرية، شيان هسوتش ـ سين، كان مريضاً. وكان قد زاره رئيس الوزراء، وين جياباو في المستشفى وسأله عما كان يريد أن يقول في نهاية حياته؟

ويروى أن شيان كان قد أخبر رئيس الوزراء وين: «نحن نحتاج إلى المزيد من التجديد. نحن لا ننشئ أي أناس خلاقين. نحن ننتج فنيين».

سو مبتهج يشعر بالنصر من فكرة أن أعلى عالم في الأمة له نفس الرأي الذي يراه، وأن الرجل البالغ من العمر أربعة وتسعين عاماً يختار ذلك الرأي ليكون كلمة النصيحة التي تقدم إلى رئيس وزراء الأمة من سرير مرضه.

ونحن ننهي كوب شاينا ونستعد للمغادرة، يقول: «هذا ليس فقط عن الفن. نحن نتحدث عما يلزم من أجل بقاء مجتمعنا على قيد الحياة. تريد الحكومة تعليماً متقدماً من دون أن تشجع الناس على التفكير».

ولا يمكن أن يكون هناك خلاصة أفضل للمأزق الصيني اليوم: التوتر بين الحاجة إلى فرض الفكر المعتمد لكي تُستبقى الوحدة وبين الحاجة إلى السماح بالحرية لكي تُشجع الإبداعية. وبالنسبة إلى اللحظة الحالية، وفي مدن مثل شيان على الأقل، رَشَت الحكومة الكثير من الناس بالتطور الاقتصادي. فإذا كنت تستطيع أن تجعل الناس يفكرون فقط بشأن الاكتساب والصرف، والاكتساب والصرف، فإن رغبتهم في أن يفكروا لأنفسهم تكون أقل احتمالاً. ولكن ماذا يحدث إذا تضاءل مخدر الرفاهية في المدن مثلما تضاءل في الأرياف؟ وفي عالم اليوم المعولم، كيف تستطيع أن تصير قوة كبيرة على أي حال ـ بلد سوف يتقدم وينجح ويحتمل ـ إذا كنت لا تسمح لشعبك أن يفكر؟

10

«ناسك الجبل المزهر»

يقول جونغ ليانجيه: «أنا روح ضائعة، فأنا أشعر كأنني ضللت طريقي».

نحن نجلس في مقهى في شيان. جونغ فنان ومصور شاب جداً ويبلغ من العمر أربعين سنة ونيفا. وأنا أقابله لأنه متوجه في اليوم التالي إلى هوا شان (وتعني الجبل المزهر)، وهو واحد من جبال الصين المقدسة، ويبعد مسافة قيادة ساعتين في السيارة خارج مدينة شيان. وأنا أيضاً متوجه إلى هناك.

ويملك جونغ ليانجيه شعراً أسود طويلاً، وهو مربوط على شكل ذنب حصان، ويلبس قميصاً أسود بلا أكمام على شكل تي T ويلبس بنطال جينز. وكان قد ترعرع في بكين ووصل نضجه فناناً في الثمانينيات من 1980، كما يقول، حين: كانت المثالية مازالت موجودة، وكانت البطولة مازالت موجودة» في الصين. ويقول: ومع سحق المتظاهرين من أجل الديمقراطية على أيدي قوات الحكومة في العام 1989، تغيرت الصين كما يقول. خرجت السياسة، خرج التجريب، خرج كل شيء عدا جمع المال. وهكذا انتقل جونغ إلى نيويورك، التي مازال يقضي فيها قسماً من العام.

ونجلس لوقت طويل نناقش «موت البطولة» في الصين، وجونغ يقول إنه يفتقد شيئاً ما في حياته، في أعماق القلب.

ويقول «قررت أن أهرب من العالم الحديث لمدة أسبوع، وأذهب لأعيش مع ناسك طاويٍّ يعيش على الجبل المزهر».

وأرفع حاجبي وأقول «أيوجد ناسك طاويّ على الجبل المزهر؟»

«نعم. قابلته حين زرت هناك في العام الفائت. وأنا ذاهب للإقامة معه، في كهفه، لمدة أسبوع».

«لماذا؟»

«لأستكشف نفسي ثانية. ولأعاود الربط مع... شيء ما. أنا لا أعرف ما هو».

«هل أستطيع المجيء؟» أعني، هل أستطيع مقابلة الناسك؟»

«حسناً..». ويتوقف عن الكلام.

وأسأله «حسناً، هل أستطيع على الأقل أن أزور الناسك لمدة وجيزة؟ ولن أتطفل على خططك الخاصة».

«لا بأس، إذا، لا أعتقد أنه سيمانع».

ومع ذلك الاتفاق، نرتب أن نلتقي في فندق كهف المرأة ذات الشعر، هيري وومن كيف هوستيل، في منتصف الطريق صعوداً في الجبل، في اليوم التالي.ويعطيني جونغ التوجيهات اللازمة للوصول إلى الفندق وبعدئذٍ يخبرني أين يقع المسار المخبأ الذي يقود إلى كهف الناسك.

يوجد تقليدياً خمسة جبال طاوية مقدسة في الصين، واحد في كل نقطة من النقاط الأربع في البوصلة، زائداً واحداً في المركز، وهي تصل رمزياً السماء بالأرض. والجبل المزهر هو الجبل المقدس في الغرب. ويقال إن قممه الخمس تشبه زهرة لها خمس بتلات، ومن هناك جاء اسم الجبل المزهر.

وكلمة داو أو طاو (التي كانت تهجأ تاو في العادة) تعني «الطريق» في اللغة الصينية وتشير إلى طريق الكون، والنظام خلف الطبيعة، والقوة داخل الطبيعة. وفي حين تعد الكونفوشيوسية نوعاً من الفلسفة الاجتماعية، وفي حين جاءت البوذية من خارج الصين، تستطيع الطاوية أن تزعم بأنها «الدين» الصيني المحلي الحقيقي. إنها كلها تدور حول إيجاد الإنسان مكانه في التوازن الكوني العظيم للأشياء. وعلى عكس الأديان التوحيدية، في تأكيدها على الخير يحارب الشر، ففي الطاوية هناك ما يعرف باسم وحدة الأضداد. فالخير والشر، والنور والظلام، والقوة والضعف، والفراغ والامتلاء، كلها جزء من الكل نفسه، وكل واحد منها ضروري للآخر. والطاوية أيضاً مرتبطة

ارتباطاً وثيقاً بمفهوم فنغشواي (fengshui)، ويعني قواعد التنبؤ بالمكان التي يعتقد أنها تحكم الانسجام الكوني حين يتقرر أن توضع المباني والأضرحة. وكان يعتقد أن الفنغشواي للجبل المزهر متراصف تراصفاً كاملاً وأسهم بقدسية الموقع، الذي اجتذب الحجاج من كل أنحاء الصين.

كان يقال في الصين القديمة إن العالِم الصيني التقليدي كان كونفوشيوسياً حين يكون في المنصب، وهو طاوي حين يكون خارج المنصب، كانت الطاوية من عدة وجوه نقيض الكونفوشيوسية، على الرغم من أنها جاءت لتكمل الصفات الكونفوشيوسية داخل الشخصية الصينية. ففي حين شدد كونفوشيوس على النظام والواجبات وإيجاد الإنسان لمكانه في المجتمع، ركزت الطاوية تركيزاً أكبر على الأسئلة الماورائية، على إيجاد الإنسان مكانه في الكون. كان لها علاقات مع الأديان الشعبية. وكانت مرتبطة بالخيمياء والسحر، وبالتأمل وسيطرة الحمية. الكونفوشيوسية تبعت قواعد «السلوك السليم وفقاً للمكانة». أما الطاوية فاتبعت مفهوم «اللافعل».

والتحقت البوذية فيما بعد بالفلسفتين، وكانت البوذية قد وصلت من الهند في القرن الأول بعد الميلاد. وانضَفَرت الثلاثة معاً، واستعارت الواحدة من الأخرى، في عقول الناس على الأقل، وأنشأت هيكلاً سخياً للآلهة الصينية والمعتقدات. وغياب الإيمان التوحيدي الذي يدعي أنه موحى بوصفه حقيقة إلهية هو بلا ريب واحد من الأسباب التي تجعل الشعب الصيني يزعم أنه لم يقاتل قط حرباً باسم الدين، ولكن بعض المفكرين الصينيين يأسفون بشدة من أن فقدان أي مفهوم جازم من الحقيقة الموحى بها قد أدى إلى نسبية أخلاقية غير صحية في العقل الصيني. كانت الحقيقة دائماً نسبية في الصين، في حين لم تكن السلطة السياسية كذلك، كما يقولون، والشيء نفسه مازال صحيحاً اليوم.

وأنا أستطيع أن أرى لماذا دعا الأقدمون الجبل المزهر مقدساً. إنه مكان يوحي بالعالم الآخر على نحو خيالي. فأعلى قمة ترتفع سبعة آلاف قدم فوق السهل، ووجوهه الصخرية البيضاء تتألق مشرقة في ضوء الشمس. والأشجار الصنوبرية تلتصق

بصفائح الصخر الحادة، وبطريقة ما تجد شقوقاً لتعلق فيها جذورها كالمخالب. والشجيرات الخضراء الأخرى والأعشاب تجد ممسكاً لجذورها أيضاً، وتتابع نازلة كالشلال في الصخر مثل ضفائر من الشعر على جبل هو فيما عداها أصلع.

حين وصلت القوى الغربية مع آلاتها ومدافعها في القرن التاسع عشر، وجدت البلاد مازالت مشربة بالبحث عن توازن الطاوية وانسجامها. ولكن الطاو برهن على أنه درع غير فعال ضد شعب المحيط المندفع، والمتطلع قدماً. وحين كانت الصين في القرن التاسع عشر ومطالع القرن العشرين تتلمس طريقها من أجل أن تصد الغزوات الأجنبية، وصل الأمر بالمصلحين والثوريين معاً أن ينظروا إلى أنظمة الاعتقاد التقليدية بوصفها جزءاً كبيراً من المشكلة. وقد وضع الشيوعيون إيمانهم، وهم يجمعون الدعم في العشرينيات من 1920 والثلاثينيات من 1930، في قهر الطبيعة، لا في إيجاد الانسجام معها. لقد رأوا فلسفات الصين التقليدية بوصفها فلسفات ممسكة بالبلاد في التخلف. ولكن الشيوعيين، بدل أن يزيلوها بهدوء، شنوا عليها هجوماً على نطاق كامل، وبعد العام 1949 كان الكثير من المعتقدات الصينية التقليدية قد مسح، على السطح على الأقل.

ونتيجة لذلك، وبعد ستين عاماً من الهجمات الشيوعية، تستطيع الصين أن تظهر بوصفها مكاناً بلا روح على نحو غريب. فلا يوجد نساك هنا، من الرجال المقدسين الذين يُروَن في كل بلدة في الهند اليوم، وهم يلبسون أثوابهم الزاهية البرتقالية. وهناك قليل من الاحتفالات الدينية العلنية أو التقاليد التي تقارن، على سبيل المثال، مع غسل الذنوب والخطايا في نهر الغانج. وليس هناك ما يقارن مع حج المسلمين إلى مكة المكرمة، أو شعائر الصلاة وانضباطها خمس مرات في اليوم. في الصين، يحتمل أن تقابل بائعاً جوالاً يبيع الهواتف الخليوية الجوالة من بيت إلى بيت أكثر من احتمال أن تقابل رجلاً مقدساً يتنقل من مكان إلى آخر يوزع الحكمة.

الهند والشرق الأوسط استبقوا روحانياتهم الخاصة بهم، وهو ما لم تفعله الصين. وعلى الرغم من أنه يوجد الآن عودة لظهور الاهتمام ببعض الأديان الشعبية ونمو في النشاط الديني في أنحاء البلاد، تشعر الصين في التيار الرئيسي منها أنها علمانية

جداً. وأنا لا أعتقد أنها صدفة أن تملك الصين أيضاً معدل نمو اقتصادي أسرع من مناطق العالم الأخرى. فالصين بتدميرها لطرقها التقليدية للتفكير، قد استأصلت أي قيود أخلاقية في مطاردة متهورة قدماً نحو الثروة والتطور.

وكأنما للتعبير عن هذه الفكرة، تقف محطة طاقة ضخمة تنفث الدخان غير بعيد عن المدخل إلى الجبل المزهر، محذرة الحجاج الذين يمكن أن يحجوا إلى ذلك الجبل، من أنه لم يبق بعد اليوم المكان المقدس الذي كان عليه في سالف الزمان. وقد بنيت طريق سكة حديدية على طول أسفل الجبل، أيضاً. ليس هناك شيء مشابه تماماً لقطار شيان بكين السريع ليهز بصليله رأيك عن الفنغشواي، قواعد الانسجام والتوازن.

بعد أن أُخِّرت في مغادرتي، أقرر مع الأسف أنني لا أملك الوقت لتسلق يدوم خمس ساعات إلى قمة الجبل إذا كان علي أن أعود وأهبط راجعاً إلى فندق هيري وومن كِيفْ هوستل مع غروب الشمس. ولذلك أركب عربة كبلية، يجرها كبل، إلى منتصف الطريق صاعداً وأتسلق في الحرارة إلى أخفض قمم الجبل، الذروة الشمالية. وهنا أيضاً منظر مذهل فوق الذرى المختلفة التي تكوّن الجبل المزهر. وفي كل المحيط توجد دوامات كبيرة من الحجارة، مثل دوامات ماء من صخر أبيض يختفي في الجبال، ووجوه صخرية كانت طوال آلاف السنوات تهمس للمسافرين: «ابقوا ساكنين». «أوجدوا التوازن». «اتبعوا الطاو».

اما الآن، فقد غطت أصوات السياح المتنافرة على الصمت. وقد يكون فلاحو الصين منطلقين على الطريق ليجدوا لهم عملاً، ولكن الطبقات الوسطى الجديدة خارجة تسافر، وتستكشف، وتسير إلى الأركان الأربعة من بلادها وما وراء ذلك. وأنا لا أكاد أستطيع التحرك على الجبل بسبب السياح الصينيين المتأثرين المنفعلين، وأتعرق على طول المسرب الجبلي الضيق معهم سائراً نحو الدرجات الشديدة الانحدار صعوداً إلى الذروة الثانية. وامرأة شابة، في إجازة مع أسرتها من بكين تريد أن تجرب لغتها الإنجليزية. وتطلب أن تلتقط لها صورة معي. («ها هي أنا مع أجنبي! انظروا كيف يتعرق مثل خنزير!») وأمكث عشرين دقيقة، وعقلي يهرب من الجماهير وينجرف راجعاً إلى قدسية الماضي، ثم أبدأ بالهبوط المنحدر جداً نازلاً في العودة.

فندق هيري وومن كيف هستل صغير، وفيه غرف قليلة فقط مع بعض أسِرَّة منامة كالتي توجد في مدرسة داخلية. والفندق ليس داخل كهف، ولم تكن هناك امرأة ذات شعر (على الأقل لا أراها)، وعلى الرغم من أنه كانت على ما يبدو سابقاً في ضباب الزمن، فالنزل مبني بأسلوب صيني تقليدي، وهو يجثم بين واجهة الجبل الحاد وانعطافة في المسرب المتعرج الذي يؤدي إلى القمم. ومركزه في فناء تقليدي، وهو المكان الذي ألقي فيه حملي اليومي بعد المشي لعدة ساعات نازلاً من الذروة الشمالية. وقد قال جونغ الفنان الضائع إنه سيمضي اليوم يلتقط الصور في طريقه صاعداً في الجبل المزهر. وكنا قد اتفقنا ألا نستخدم هواتفنا الخليوية الجوالة على الجبل. فقد كان يبدو عمل ذلك منافياً نوعاً ما للقدسية، وخصوصاً بالنظر إلى أنه قادم إلى هنا ليبتعد عن كل ذلك.إن الوصول إلى الفندق يعطي شعوراً بالتحرر نوعاً ما وليس لدي أي فكرة متى سيصل، ولا أي طريقة لأكتشف ذلك. ربما ضاع على الجبل المزهر.

ويحضر لي صاحب النزل طاساً من حساء المعكرونة الطويلة، ثم أجلس فقط في الفناء أشاهد الجبل. وتغرب الشمس الذهبية القاسية، ويرتفع القمر الحليبي اللون اللطيف، ثم تنبسط سريعاً سجادة من النجوم الجميلة عبر السماء الصينية السوداء بلون الحبر.

أحياناً في الصين، وفي الحقيقة نادراً على نحو مثير للدهشة، تمسك بك روح المكان، المشرب بتلك الآلاف الخمسة من السنين من الحضارة المستمرة وتملؤك بالبهجة. فجأة تكون مرتبطاً مع التاريخ الصيني الرائع، وربما يكون هو السبب الذي من أجله قد جئت، وربما من أجله مكثت، وبالتأكيد هو الذي من أجله تتساءل بتعجب إن كنت تستطيع، أو كنت يجب أن تغادر في أي وقت. أنا لا أستطيع أن أتذكر آخر مرة في حياتي فقدت فيها مسار الزمان، ولكنني أجلس هناك في فناء فندق كهف المرأة ذات الشعر، هيري وومن كيف هوستل، طوال ساعات، أنظر إلى الجبل الذي يضيئه القمر، أركض عبر محفوظات عشرين سنة من أشرطة السينما العقلية في دماغي. وأحاول أن أستذكر قصائد أسرة تانغ تلك التي تعلمتها في الكلية.

كأس من الماء، تحت الأشجار المزهرة،
وأنا أشرب وحدي، ما من صديق قريب،
وأرفع كأسي أومئ إلى القمر المنير،
لأنه هو، مع ظلي، سيصنع ثلاثة رجال.

يبدأ تيار مستمر من المتسلقين في الليل بالعبور بالقرب من النزل، فهم لا يستطيعون افتقاد بابه على مسرب المشاة الوحيد الصاعد إلى قمة الجبل. عشرات من الناس يختارون التسلق في الليل لكي يصلوا الذرى في الوقت المناسب لشروق الشمس. وهم يشترون الماء أو يجلسون لتناول طاس من حساء المعكرونة الطويلة، أو يأخذون قسطاً من الراحة من التسلق لا غير. كثيرون منهم طلاب، يستغلون عطلة الصيف ليأتوا للاستكشاف. والمحادثات هي دائماً نفسها، العوالم الصغيرة للنفس الصينية المتغيرة، عقول الشباب تندفع بسرعة في الاتجاه المعاكس لعقلي.

وأسأل «من أين أنت؟»

«هوباي، ولكنني أدرس في بكين».

«وماذا تدرس؟»

«علوم الحاسوب».

«هل تعرف ما هي الطاوية ؟»

«لا في الحقيقة. نحن لا نتعلم عنها في المدرسة».

«مرحباً. من أين أنت؟»

«هونان، ولكنني أدرس في شنغهاي».

«هل تعرف ما هي الطاوية ؟»

«شيء ما عن الطبيعة، أليس كذلك؟»

«وماذا تدرس؟»

«هندسة معلومات إلكترونية».

في الصباح التالي أنطلق مبكراً إلى كهف الناسك. فصاحب النزل يقول إن صديقي جونغ وصل متأخراً جداً في الليلة الماضية، وهكذا أقرر ألا أوقظه. فهو سيشق طريقه صاعداً إلى الناسك اليوم، وهكذا فسوف أقابله إمّا على الطريق أو حين يصل هناك. انطلق في السابعة، ولكن الحرارة كانت قد تجمعت من قبل. ومدخل المسرب المؤدي إلى الكهف مخبأ، ولكن جونغ كان قد أخبرني كيف أجده. حين أصل إلى النقطة التي أعتقد أنه كان قد وصفها لي، أتسكع للحظة لأدقق أنه ما من أحد آخر قد رآني. فأنا لا أريد أن يتبعني حشد من السياح الصينيين في حجي. وحين يكون واضحاً أنه لا يوجد أحد في المكان، أندفع كالسهم في الفجوة الموجودة بين الأشجار وأدخل إلى الغابة. ويصير المسرب الحجري في الحال مسرباً بسيطاً في الغابة، تتبعثر فيه أوراق الشجر والتوت البري. هناك إحساس مفاجئ بالسرور، حال الابتعاد عن الجماهير على مسرب لا يعرفه إلا قليل من الناس.

إنه تسلق قاس، وسريعاً يصير قميصي مشبعاً بالعرق. وأصل إلى منعطف يوجد فيه صخرة ضخمة وجهها نحو مسرب السياح وتقدم منظراً رائعاً من جلال الجبل المزهر نفسه الجبل ذي اللون الأصفر الباهت. ويعطي شعوراً كأني فيه أنا الشخص الوحيد لعدة أميال مجاورة.

بعد استراحة قصيرة، أكافح صاعداً في المسرب ثانية، وأنزلق أحياناً على الوسخ الرطب، الأسود. والمفروض أن صحتي سليمة. والمفروض أنني أتمرن للاشتراك في الماراثون. وتزداد الحرارة وأبدأ باللهاث. يجب أن يكون هذا مستحقاً للتقدير. ويجب على هذا الناسك أن يمتلك شيئاً ليقوله لنفسه. بعض مؤشرات أسلوب الحياة الصحي على الأقل.

يوجد طحالب على الجبل المزهر. والطحلب واحد من الأشياء المفضلة عندي في كل العالم، وهو الطحلب الأخضر الغامق، والشديد الرطوبة والأسود ولدى الصين الشمالية القليل منه، لأنها لا تمطر قط. الجبل المزهر عليه الكثير، الملتصق بالصخور، والمتشبث بالأشجار، وبأي جذور وبأي لحاء يستطيع أن يجده. وأقف من حين إلى آخر كي ألمس الطحالب فقط.

بعد ما يقارب الساعة والنصف من التسلق صاعداً في الجبل مع التعرق الشديد، تبيّنت أمامي مجموعة من الدرجات الحجرية، بعضها مكسور، ومعظمها صار أخضر مع الزمن، وتؤدي إلى قنطرة حجرية في القمة، أتسلق الدرجات وأنظر من خلال القنطرة إلى حديقة ضئيلة.

في خلفية الحديقة توجد بلاطة ضخمة بيضاء من صخر الجبل المزهر، مثل جُلجُثة صينية، أي، مثل التلة، بارزة من الجبل نفسه. وتوجد ثلاثة أبواب دخول إلى الكهف مقطوعة في الصخر.

وأمام الكهوف، في الأعلى إلى اليمين، خلف بعض زهور عباد الشمس الكبيرة وبقعة خضروات مفرطة في النمو، توجد درجات تقود إلى كوخ صغير. وأمشي ماراً على الكهوف وأنادي بلطف. «أيوجد أي شخص هنا؟»

صمت.

ثم فجأة ترفع الستارة المنسدلة على عرض باب الكوخ ويخرج منها رجل صغير في بنطال قصير أزرق وقميص علوي قطني أحمر بلا أكمام.

وعلى نحو ما لم أكن أتوقع أن يظهرالراهب، كما لو أنه كان ذاهباً ليقوم ببعض الجري.

وأسأل: «هل أنت الراهب الطاوي شيو؟»

ويجيب وهو يبتسم ابتسامة لطيفة: «نعم أنا هو». يبدو كأنه ربما في منتصف الثلاثينيات من عمره، وله وجه عريض وذقن صغيرة مشذبة طويلة بما يكفي لتكون خصلة رفيقة القوام بشكل لطيف في النهاية. وشعره الأسود الطويل مسحوب إلى الخلف في شكل كعكة.

وأشرح له من أنا، وأنني صديق الفنان جونغ الذي سيصل فيما بعد في هذا اليوم، وأنني أكتب كتاباً. وأسأله إن كان مهتماً في التحدث إلي لبعض الوقت.

ويقول: «ليس هناك أي مشكلة. فأنت موضع ترحيب».

على الرغم من أنني أعمل (أو ربما بسبب ذلك) في أكثر المهن اتصالاً بالدنيا وتناغماً معها على ظهر هذا الكوكب، مهنة مربوطة بأسلاكها 24/7 مع ما يحدث في أنحاء الكون، يجب أن أعترف، أنني أمتلك نزعة رهبانية على نحو جاد. فأنا أحب عملي، والأخبار، والسفر، والكتابة، والاتصال الفكري مع العالم، ولكنني أشعر، على فترات منتظمة، بالحاجة إلى أن أخرج وأبتعد عنها كلها، بالحاجة إلى أن أتسلق جبلاً وأن أهرب لا غير. وحين نذهب في عطلة إلى إيطاليا الريفية، أتجول بعيداً كي أجد أديرة، وأحياناً تعجب زوجتي وتتساءل إن كنت عائداً. منذ سنوات قليلة وقعت بالصدفة على دير قديم رائع عاشت فيه مجموعة من الرهبان الصامتين. وأنا التحقت تقريباً بالمكان. أتحدث إلى الأخبار المتدحرجة عن الترياق الشافي.

وهكذا، فهناك بالنسبة إلي شيء ما مقنع إقناعاً كاملاً بشأن رجل منسحب من المجتمع ليعيش مع الطبيعة على سفح الجبل.

قميصي، وهو بشكل حرف تي T، مشبع بالعرق، ولذلك فأنا أسأل الناسك إن كنت أستطيع أن أعلقه لينشف في الشمس، ويشير إلى حبل غسيل خارج غرفة نومه في الكهف. وأجلس وأنا ألبس البنطال القصير والصندل فقط، شاعراً بأني أنا نفسي أرجع إلى الطبيعة عن وعي ذاتي.

طبعاً، أنا لدي أسئلة، وهكذا ألعق قلمي الرصاص وأبدأ بوضعها أمام الناسك شيو.

وأول ما يتقدم، ما هو الطاو بالضبط.

«الطاو هو....... باللغة الصينية».

وأكرر باللغة الصينية وأدون ما يقول، ولكن علي بعدئذٍ أن أترجم ما قاله ببطء لنفسي بصوت عال.

«... قانون أصل الأشياء العشرة آلاف».

همممم. وهكذا هل الطاوية دين؟

«نعم».

وهكذا، هناك آلهة؟

«في الأصل، لم يكن هناك آلهة، ولكن حين مات سادة الطاوية، صاروا آلهة. وعبدهم الناس. وأولئك هم الذين تمثلهم التماثيل في الكهف الأدنى أسفل من هناك». قال ذلك وهو يشير إلى المكان.

«وإذاً ماذا تحاول أن تفعل هنا؟»

«أنا أحاول أن أنسحب من الشؤون المعقدة للعالم».

«وماذا ترى في كل هذا التطور حولك من كل النواحي؟ هذا التطور المجنون في الصين الحديثة؟»

«التطور جيد. ونحن لا نستطيع أن نأسف للتطور. ولكن الكثير جداً من التطور يضر بالطبيعة. إنه الآن مُفرِط قليلاً في هذه اللحظة. وبالتأكيد هناك الكثير جداً حالياً من الجري خلف النقود».

«وماذا عن علم الحاسوب؟ ماذا عن هندسة المعلومات الإلكترونية؟»

«الإيمان بالعلم لا بأس به. العلم هو أكثر الأشياء علاقة بالطبيعة. والسبب الوحيد الذي نملك العلم من أجله، هو أن أسلافنا، منذ آلاف السنين، تحدثوا عن الطبيعة».

وأسأله عن معمل الطاقة الضخم الموجود إلى جانب الجبل المزهر تماماً، والذي يبدو بالنسبة إلي مثل وحش فظيع.

«العلم تقدم. والتقدم جيد. ولكن العلم لا يستطيع أن يبتعد عن الماورائيات. وحين يسير التقدم ضد الطبيعة، لا يكون تقدماً بل هو نكوص. حين تحتاج إلى الكهرباء، يجب عليك أن تبني معامل توليد للكهرباء. فإذا كنت لا تحتاج إليها، وهي متجاوزة للحد الطبيعي، فهي آنئذٍ ليست حقاً».

مساندة لمعامل الطاقة بحرق الفحم. ذلك ما لم أكن أتوقعه تماماً.

«ولكن ماذا عن الشعب الصيني الحديث، وعن موقفه العقلي عموماً؟»

«الناس يكافحون من أجل الحصول على طراز الحياة الحديث، ولكنهم يفقدون جذورهم. يجب علينا أن نعود إلى البساطة والحقيقة».

ونغوص في مناقشة طويلة عن التشابهات والاختلافات بين الطاوية والمسيحية، وخصوصاً عن قابلية الإلهي ليكون معروفاً.

الطاو في الطاوية، الطريق نفسها، هو بطبيعته غير قابل لأن يعرف. والسطر الأول من نص الطاوية الكلاسيكي يرسخ هذا على نحو واضح: «الطريق التي يمكن أن تُمشى ليست هي الطريق الصحيحة، والاسم الذي يمكن أن يُسمى ليس هو الاسم الصحيح».

وأنا أشعر دائماً أن هذا السطر المفرد كان قد امتلك تأثيراً على النفسية الصينية أكثر من أي تأثير آخر تقريباً. ليس هناك حقيقة روحية مطلقة. الحقيقة، إن وجدت، غير قابلة لأن تعرف.

قابل هذا مع اليهودية والمسيحية (أو، بالنسبة إلى تلك المسألة، مع الإسلام)، وهي أديان تؤكد أنها وحي من الحقيقة الإلهية.

قال المسيح: «أنا الطريق، والحقيقة، والحياة. وما من أحد يأتي إلى الأب إلا من خلالي». المسيحية تقول إن الحقيقة قابلة لأن تكون معروفة، وذلك التأكيد شكل التفكير الغربي. بل لو لم يكن كل شخص مؤمناً بالمسيحية، لاستمرت بثبات فكرة الحقيقة الأخلاقية الموضوعية، الموجودة استمرت ثابتة.

حين وصلت البعثات التبشيرية الغربية الأولى إلى الصين، عملت على خلط التفكير الغربي والشرقي بشكل جميل نوعاً ما في ترجماتها للكلمات الافتتاحية من إنجيل يوحنا. وهي باللغة الإنجليزية تقول: «في البدء كان الكلمة». وفي اللغة الصينية ترجم هذا النص بقولهم: «في البدء كان الطاو (الطريق)».

أنا أحب الناسك شيو. فهو يتكلم عن أشياء أحب أن أتكلم عنها أكثر من علوم الحاسوب وهندسة المعلومات. ونحن نتحدث ونتحدث، ويبدو أنه هو يستمتع بالمحادثة أيضاً. وأخيراً، أقول إن لدي سؤالاً أخيراً قبل أن ألبس قميصي الذي كان قد نشف الآن وأغادره وأتركه وحيداً. وهو يرفع حاجبيه متوقعاً للسؤال.

وأساله: «وإذاً، ما الذي ترى أنه معنى الحياة؟»

وأنا أضحك حين أطرح السؤال، وهو يضحك حين يسمعه.

«معنى الحياة هو تحقيق الطاو».

«ولكن كيف تحقق الطاو؟»

«بالتعايش مع الطبيعة».

وأنا أدون ذلك بروح دينية.

وحين كان يمشي معي إلى القنطرة الحجرية عند مدخل حديقته، أسأله إن كنت أستطيع الرجوع إليه والإقامة معه لبعض الوقت، وهو يوافق.

«إذا أستطيع أن أحضر وحسب؟»

ويجيب: «بالتأكيد، أو فإنك تستطيع أن تهاتفني».

«أهاتفك؟»

«نعم، هاتفني بالهاتف الخليوي. ها هو الرقم».

هناك دخان قليل، رقيق معلق فوق الجبل المزهر وأنا أهبط المسرب من كهف الناسك. وكان يمكن لذلك المنظر أن يصنع صورة صوفية روحية رومانسية كاملة لو كنت فقط أستطيع أن أتغلب على الشك في أن الدخان قد يكون منبعثاً من محطة القوى القريبة.

عدت إلى فندق كهف المرأة ذات الشعر، وصديقي جونغ مستيقظ ويأكل وجبة تجمع الإفطار والغداء. ونجلس لمدة نحو ساعة يحاور أحدنا الآخر حول ما نفعله كلانا هنا.وهو يخبرني عن بحثه الروحي، وعن خيبات الأمل من العيش في الصين حين يكون كل ما يريد أن يفعله الناس هو كسب المال. وهو يتفجع من ظهور البرجوازية الصغيرة، كما يدعوهم، ويقول إن «الماء الاقتصادي قد غمر الفكر النشيط». ثم نتوادع، وينطلق هو صاعداً في المسرب ليقضي الأسبوع مع الناسك، وأنا أنطلق نازلاً في التل من الفندق لألحق بحافلة ركاب راجعاً إلى شيان.

عند أسفل الجبل، أمشي تحت مسار السكة الحديدية في الوقت الذي يمر فيه قطار سريع كالرعد القاصف، وأتملص من الباعة الذين يريدون أن يبيعوني بطاقات بريدية للجبل المزهر، وقمصان بشكل حرف تي T وقبعات شمسية، وأركب في حافلة ركاب صغيرة لرحلة العودة إلى شيان، آملاً في أن أستطيع مجرد الجلوس بهدوء لمدة من الزمان وأتأمل في الطاو.

ويدور جابي التذاكر ويأتي نحوي ليأخذ أجرتي. وهو رجل له مظهر لطيف، عدا هذا الجانب من المظهر الرخيص، الذي كان يمكن أن يؤخذ على محمل الجد بشكل أكبر بكثير لو أنه لم يطو منشفة رطبة على قمة رأسه. ويأخذها من حين إلى آخر ليمسح وجهه المتصبب عرقاً، ثم يرجعها ثانية على رأسه. ويسألني الجابي من أين أنا، وينتج عن ذلك الثرثرة المعتادة بالكلام العابر، ومن جملته تقويم يميل بشكل ملحوظ لصالح المملكة المتحدة.

ويقول: «هونغ كونغ جيدة بسبب حكمكم أنتم لها».

في صف واحد أمامي، في الجانب الآخر من الممشى، يوجد رجل صيني شاب المظهر وله قصة شعر خفيفة ويلبس حذاء لامعاً جداً. ويظهر وكأنه قد يكون جندياً خارج الدوام، ويأخذ موقف الاستثناء مما قاله جابي التذاكر.

وقال وهو يتلفظ بشدة نحو السيد منشفة رطبة: «وإذاً فأنت تعتقد أن البريطانيين كان يجب أن يحكموا كل الصين تماماً، أليس كذلك؟»

ويرد الرجل حامل المنشفة رداً استفزازياً، من دون أن يذكر حزباً معيناً: «بالتأكيد. لم يكونوا ليستطيعوا عمل واجب أسوأ مما تعمله هذه المجموعة».

ويقول صاحب الحذاء اللامع (وهو يحتاج إلى تأسيس صدقيته لدى شباب الحضر، وحقيقة أنه ليس مسؤولاً فاسداً)، يقول: «انظر. أنا لا أحب الحزب الشيوعي، ولكنك لا تستطيع أن تكون متشائماً إلى هذا الحد».

ولكن السيد منشفة رطبة ما كان يحب أن تقمعه الوطنية. وبعد أن كان قد جمع كل الأجرة، يجلس في المقدمة مواجهاً الركاب، وهو يستبعد تماماً مناقشة صاحب

الحذاء اللامع، ويقول: «طبعاً أنا متشائم. أعيش في هذه البلاد، إنها فاسدة جداً بشكل تام».

ويحتدم النقاش بالغضب لمدة خمس دقائق، ومن دون أن يشارك أي شخص آخر، ثم إن الاثنين أقلعا عن النقاش وجلسا وهما يلتزمان الصمت. أخيراً، صعد إلى السيارة مزيد من الركاب، وانطلقنا نحو الطريق السريع لنبدأ رحلة لمدة ساعتين عائدين إلى شيان.

11
إلفيس يعيش

أقضي يوماً نهائياً في شيان، زائراً للمزيد من الأضرحة الإمبراطورية خارج المدينة في الصباح ومتصفحاً للكتب عبر مكتبات المدينة في فترة الأصيل. وأفضل الكتب كلها مبيعاً كتب الإدارة، والكتب الدليلة التي ترشد إلى الكيفية التي تكسب فيها مليوناً، وكتب سِيَر رجال الأعمال الغربيين الناجحين. وأتصفح كتب التاريخ المعروضة للبيع، وهي كتب تخصص صفحة لتاريخ الصين منذ العام 1949 ومئتي صفحة تقريباً للفترات المختلفة قبل ذلك التاريخ. وأبحث عن أي علامة باقية من النظرية الماركسية، وأجد في نهاية المطاف كتاب ماو المقروء قليلاً مخبأ بعيداً في طابق علوي، ولا يفتقده رجال المشروعات الذين يلتهمون قسم كتب الأعمال في الطابق الأرضي.

وطوال فترة الأصيل، أعقد أيضاً جلسات استماع لسائق يعمل معي في فيلم طريقي. فإذا كنت سأمضي اليومين التاليين في سيارة أجرة لأحد السائقين، فإن من الأفضل أن يكون لديه شيء يقوله. وفي كل سيارة أجرة أدخل فيها، أتحادث مع السائق حول كل شيء وعن لا شيء. كم يستطيع أن يخبرني عن المنطقة المحلية؟ وهل سيكون له أصدقاء في الريف نستطيع أن نتوقف ونراهم؟ كيف هي قيادته للسيارة؟ وهم يجيبون، غير واعين لحقيقة أنهم يؤدون جلسة استماع لدور العمر.

وفي اللحظة التي أصعد فيها إلى سيارة غو العجوز، أعرف أنه هو الرجل. ولو كانت هناك منافَسات تجري لمن يشبهون إلفيس بريسلي في الصين، لاستطاع غو العجوز أن يظهر أنه إلفيس بريسلي كما هو تماماً ويكسب الجائزة الأولى. ويقول إنه في الستين من عمره تقريباً، ولكنه يبدو أفتى كثيراً. له شعر أسود كثيف، عليه زيت بشكل ضئيل، وله طية ضئيلة لشفته العليا. ولو أنه لم يكن يسهم في إعادة البناء الشيوعي لمقاطعة شانسي وهو شاب في الخمسينيات من 1950 والستينيات من 1960، لأقسمت أنه كان يضع الفتيات اللابسات التنورات الطويلة على كتفه في ساحات الرقص في ممفيس.

ولديه ميل إلى الإيجاز قليلاً عن الحياة جعلني أحبه فوراً. وأخبره أن يقابلني في الفندق الذي أنزل فيه في اليوم التالي، وكان يوم أحد ، في الساعة السابعة في الصباح من أجل بداية مبكرة.

يصل غو العجوز في الوقت المتفق عليه، ونتوجه إلى خارج البلدة، وأنا أهمهم بأغنية روك سويدية «أحذية سويدية زرقاء» في الخلف من السيارة. وسيارته من نوع فولكس فاجن سانتانا معتنى بها عناية جيدة، مع وجود ستارة ذات أهداب على عرض النافذة الخلفية وستائر على كل نوافذ الركاب أيضاً. ومكيف الهواء يعمل، وسوف نحتاج إليه بلا شك فيما بعد. وقبل أن نصل ضواحي شيان، يتوقف وينتظر بجانب الطريق خارج مجموعة شقق.

ويسألني فجأة: «هل من المناسب إذا أتت زوجتي كذلك؟»

«زوجتك؟»

«نعم، إنها تحب أن ترى الأرياف في الطريق إلى الشمال الغربي. ومن الآمن أيضاً لقيادة السيارة إذا كان هناك اثنان منا».

وفي أثناء حديثه، تفتح امرأة نحيلة، متوسطة العمر بوجه مستدير باب الركاب الأمامي وتدخل. وهي لا تحمل أي شيء سوى حقيبة بلاستيكية. وبعد أن ووجهت بهذا الأمر الواقع الزوجي، أقبل وأستقر في المقعد الخلفي. وأدع الرحلة تسير. ربما ستكون المحادثة مع شخصين أمتع من المحادثة مع واحد فقط. وتحادثنا محادثة قصيرة. كلاهما ترعرع في شيان. وابنهما في الجامعة، وهكذا فلديهما الآن عش خال. وكلاهما من أكثر أجيال الصين مأساوية. رجال أمريكا الذين جاؤوا من فترة ازدهار المواليد ارتفعوا على أجنحة الرفاهية التي جاءت بعد الحرب. أما جيل ازدهار المواليد في الصين فقد تم امتصاصه إلى قاع دوامة جنون ماو. وقطعت الحملات السياسية تعليم السيد إلفيس والسيدة إلفيس. كانت شيان تعاني من مشكلات كثيرة، كما يقولان، من البطالة والفساد على وجه الخصوص. ولكن، وبعد عقود من الاضطراب، يبدوان شاكرين للاستقرار النسبي في الصين الحديثة.

وإذا لم تكن قد سافرت على طول الطريق 312 كل مسافة الطريق الممتدة من شانغهاي وشكّلت ارتباطاً معيناً بمسالكه الرثه، وانعطافاته الفوضوية، وزفته المهترىء، والمبقع بالزيت والوحل، فإن من المحتمل ألا تسلك الطريق 312 غرباً من شيان. ومحطتي التالية المقصودة هي لانجو، وهي رحلة تمتد لأكثر من ثلاث مئة ميل، وهناك طريق سريع بين المدينتين يوفر مسلكاً مباشراً على نحو أكبر بكثير. ويقول الكتاب المرشد إن الرحلة تستغرق أربع عشرة ساعة في حافلة الركاب على طول الخط السريع، ولكنها سوف تستغرق معي يومين في سياقة السيارة مع إلفيس وزوجته على طول الطريق 312. والطريق القديم يتلوى كالأفعى بشكل غير مباشر نوعاً ما نحو لانجو، مشكلاً ضلعين متعرجين من مثلث طويل مسطح إلى الشمال من وتر الطريق السريع، أو الضلع المقابل للزاوية القائمة من المثلث مع الطريق السريع.

ويقود إلفيس في مسار من خلال المصانع ومجمعات الشقق في الضواحي، خارجاً من ذلك إلى الطريق 312.

وهو صباح يوم ميلادي السابع والثلاثين. وتبدو السماء الصينية الفسيحة وكأنها تعترف بهذه المناسبة الخاصة وهي تمتد بلونها الأزرق متألقة ألقاً خاصاً.

كانت مقاطعة شانسي (التي تعد مدينة شيان عاصمتها) هي قلب الأرض المركزية للحزب الشيوعي منذ العام 1935، حين أسس ماو تسي توتغ بلدة يانآن على مسافة ثلاث مئة ميل إلى الشمال من شيان لتكون قاعدة الحزب. لقد كافح ماو لجلب الثورة إلى الفلاحين في الصين الجنوبية في أواخر العشرينيات من 1920. ونجح في حشد مائة ألف فلاح تقريباً في قواعده لحرب العصابات هناك، ولكنهم تعرضوا للتحرش من كل جانب من قوات عدو ماو، تشانغ كايشيك. تشانغ كان يحاول أيضاً أن يعاود توحيد البلاد المنهارة، ولكن من دون عون من الشيوعيين، وأخيراً، بعد ضغط شديد من قوات تشانغ، في خريف العام 1934 هربت مجموعة رعاع ماو من أعضاء الحزب الشيوعي إلى الجنوب فيما سيصير معروفاً في الأسطورة الشيوعية المسيرة الطويلة. وقد ساروا لمدة عام تقريباً عبر الصين الوسطى، والغربية، والشمالية، ووصلوا إلى الأمان النسبي في يانآن في خريف العام 1935. ومن هناك شن الشيوعيون في النهاية غزوهم لكل الصين في الأربعينيات من 1940.

وأكثر من تسعين ألفاً من السائرين الأصليين في المسيرة الطويلة تركوا المسيرة أو هلكوا، ولكن ثمانية آلاف أو ما يقارب ذلك العدد من الذين وصلوا شانسي هم الذي سيشكلون قلب الحزب الذي استولى على الصين في العام 1949. وبرهنت الأرض الجرداء الصفراء هنا على أنها أرض تجنيد خصبة من أجل رسالتهم الثورية لإعطاء الأرض للفلاحين الذين لا أرض لهم.

ولولا الغزو الياباني في العام 1937، الذي أجبر تشانغ كايشك على التحالف مع الشيوعيين ضد الغزاة، لكان يحتمل أن يستطيع تشانغ، الذي كان معادياً للشيوعيين عداوة مريرة، أن يمسح الحزب الشيوعي المولود حديثاً. ولكن الغزو أعطى الحزب حيزاً للتنفس. ونما وصار أقوى في أثناء الحرب العالمية الثانية، وبدأت الأسماء المائة القديمة تضع ثقتها في أعضائه، وقد ألهمتهم الطريقة التي رأوا فيها عدم قابلية الشيوعيين للفساد، ورأوا رغبتهم في القتال من أجل الفلاحين والمضطهدين والمسحوقين، ووعودهم عن إصلاح الأرض. واستغرقت مع ذلك حتى العام 1949 مع الشيوعيين ليقهروا كل الصين، ولكن ما من واحد في شانسي ينسى في أي وقت أن النصر إنما صار إمكانية هنا.

ولكنها الآن، مع ذلك قصة مختلفة. فقد يكون الحزب الشيوعي ملأ جيوب كثيرين، ولكنه فقد قلوب الأكثرية. وفي الحقيقة، خسر الحزب الثورة تقريباً حالما كُسبت، وانحلت الصين الشيوعية إلى فوضى ملتوية من المجاعة والصراع السياسي. ومع مجيء الوقت الذي مات فيه ماو، في العام 1976، كان الشعب منهكاً، وكان مغتبطاً بأنه ليس عليه أن يؤمن به بعد ذلك. والآن يجري ملء الفراغ الروحي الذي خلفه بشيء مختلف اختلافاً كاملاً.

ساعتان في خارج شيان، وأطلب من إلفيس أن يوقف سيارته سيدان العادية الفولكس فاجن بعيداً عن امتداد الطريق 312 المزدحم بمساراته الأربعة. وهناك لافتة بالقرب من جانب الطريق تعلن عن وجود القرية شوانغ جو، وكنيسة صغيرة من الآجر الأحمر تستقر إلى جانب بستان تفاح، على بعد ثلاثين ياردأ إلى الخلف فقط عن الطريق، وتقع خلف جدار مغطى بإعلان ضخم عن السماد. وفوق مدخل

الكنيسة توجد ثلاثة حروف صينية ضخمة، وتقرأ ما يعني: قاعة الأنباء الجيدة. فالعولمة لم تصل شوانغ جو، والأجانب نادرون في هذه الأجزاء، وهكذا فقد حُييت بنظرات متعجبة وأنا أتجول في الكنيسة الصغيرة.

وعبر أرياف شانسي تنتشر عشرات وعشرات من الكنائس البروتستانتية البسيطة مثل هذه الكنيسة، وكنائس كاثوليكية مزخرفة أكثر عدداً من تلك أيضاً.وهذا هو الجانب الآخر من انهيار الإيديولوجية الشيوعية في الصين: عودة ظهور الدين.

«صباح الخير. هل هناك شعائر هذا الصباح؟»

«نعم يوجد».

وسيدة عجوز تقف عند المدخل المؤدي إلى الكنيسة، مثل أنثى من القديس بطرس، تدقق أعداد جمهور المصلين وهم يدخلون من خلال بواباتها التي تقل في لونها عن اللون الصدفي. وتميل رأسها إلى جانب واحد لتحصل على نظرة أقرب تلقيها على الأجنبي الواقف أمامها، ووجهها ينشق عن ابتسامة عريضة بلا أسنان. وتقودني إلى الداخل، والذراعان يشيران، والصوت يتصاعد، مثل أب يرحب في البيت ترحيباً مسرفاً، وتجلسني في مؤخرة الكنيسة، إلى جانب سيدتين عجوزتين أخريين. ولولا ابتساماتهن المشرقة، بلا أسنان، لكان من الممكن أن يكون الثلاثي من الجدات قد خطا خارجاً بالضبط من الفصل 1، المنظر 1، من مسرحية مكبث. ثلاث ساحرات مُحسِنات يطبخن تعويذات روحية جيدة في مؤخرة كنيسة صينية ريفية.

داخل الكنيسة بسيط. بعض صور المسيح موضوعة على الجدران وهي عارية تماماً، ومقاعد منخفضة للمقاعد الخشبية ذات المساند الظهرية. ومذبح في المقدمة عليه حرف صيني كبير يعني «الحب» مكتوب عليه باللون الأحمر القاني. والحرف هو مركز الكنيسة الصغيرة، مثل معلف في رسم عصر النهضة، يشع الضوء إلى الاصطبل وإلى العالم. ويجتذب الحرف انتباهي، وربما كان ذلك في وجه من الوجوه بسبب أنه مكتوب بلون أحمر لافت للانتباه، والذي يقفز خارجاً من الألوان البنية والرمادية والخضراء في الكنيسة الريفية. ولكن الحرف أيضاً يبدو أنه يضج عالياً

ضد كل شيء حوله في الأرياف. الرئيس ماو، مثل كونفوشيوس من قبله، قدم أشياء كثيرة إلى الشعب الصيني، ولكن الحب لم يكن واحداً من تلك الأشياء. ربما ذلك هو السبب الذي من أجله تكون الكنائس مملوءة الآن.

يوجد ما يقارب الأربعين شخصاً في مجموعة المصلين، شباب وشيوخ، ومعظمهم فلاحون محليون، وكثيرون يظهرون وكأنهم قد مشوا إلى داخل الكنيسة قادمين من الحقول مباشرة. وهم معجبون بالرجل الأبيض في وسطهم. وتقول واحدة من الجدات الثلاث، وعمرها ثلاثة وثمانون عاماً، إنها لم تر قط غربياً من قبل.

وهم لا يملكون هنا قسيساً راعياً للكنيسة خاصاً بهم وينتظرون واعظاً متنقلاً ليصل. فهو يعظ في عدة كنائس في كل يوم أحد، ويقول رجل من أعضاء الكنيسة، وهو يضع نظارات سميكة جداً ويتبين أنه عازف على الأرغن، يقول بفخر إن القسيس قد ذهب إلى كلية كهنوتية. كثيرون من القسس الريفيين في الصين لا يكادون يحصلون تعليم المدرسة الثانوية، دع عنك التدريب في كلية كهنوتية، ولذلك فهو مصدر فخر كبير لهذه المجموعة من المصلين أن يكون قسيسهم متعلماً تعليماً جيداً. وأنا أسألهم بعض الأسئلة عن كنيستهم وعن أنفسهم، وأسمع القصص المألوفة عن الاضطهاد بسبب إيمانهم في الخمسينيات من 1950 وفي الستينيات من.196، وبعدئذٍ انبعاث الكنيسة، في الثمانينيات من 1980 وما بعدها. المسيح يزودهم بشيء ما يضعون فيه أملهم مختلف عن الطريق 312.

قبل أن يصل الحزب الشيوعي إلى السلطة في العام 1949، كان في الصين تقريباً 3 ملايين كاثوليكي و750.000 بروتستانتي. وحين طرد الشيوعيون الإرساليات التبشيرية بعد 1949، صار المسيحيون الصينيون تقريباً هم الأهداف المباشرة للاضطهاد. وخاف المسيحيون الغربيون على بقاء الكنيسة الصينية قيد الوجود.

وسمح الحزب لقلة من الكنائس الرسمية بالبقاء في الخمسينيات من 1950، ليعطي الوهم بالحرية الدينية، ولكن معظم المسيحيين أُكرهوا إما على التخلي عن دينهم لصالح القيصر الشيوعي أو أن يرسلوا إلى السجن أو معسكرات الشغل.

وأمضى عشرات الآلاف من المسيحيين عقوداً في ظروف مرعبة نتيجة لذلك. وبعدئذٍ حين مات ماو، في العام 1976، خففت القيود الاجتماعية قليلاً، وأطلق سراح الكثيرين من المسيحيين من السجن، وسمح للمزيد من الكنائس بالعمل. وكثير من هذه الكنائس مازالت مع ذلك ترفض الالتحاق بالكنائس «الرسمية» معتقدين أن الكهنة المعينين في مثل هذه الكنائس كانوا يأتمرون بأمر الحكومة. وأصروا على الاجتماع في بيوتهم، في ما دعي كنائس البيوت. وكان الحزب الشيوعي يضطهد في الغالب مسيحيي كنائس البيوت ويحاول أن يغلق تجمعاتهم للصلاة، وأحياناً يكون ذلك بهدم بيوتهم بكل بساطة.

ومثلما كان الأمر مع المسيحية الأولى في روما، أدى الاضطهاد إلى نمو الكنيسة الصينية، لا إلى موتها. والآن، تضع التقديرات المحافظة نفسها العدد الإجمالي للمسيحيين عند 75 مليوناً (15 مليون تقريباً من الكاثوليك و60 مليون من البروتستانت تقريباً). وذلك فقط 6 بالمائة تقريباً من السكان، ولكن مازال هذا أكثر من عدد الحزب الشيوعي الصيني البا لغ 70 مليون عضواً.

منذ الثمانينيات من 1980، سارت الكنيسة عبر عدة عقود من النمو المدهش، مالئة الفراغ الروحي الذي تركه موت الشيوعية. وقد قبل الحزب الآن بهدوء أنه لن يكون قادراً على التخلص من الدين. وفي الحقيقة، وعلى نحو مذهل، فإن المسؤولين الصينيين يوافقون، لكن ليس للنشر، على أن الصينيين يحتاجون إلى شيء ما يؤمنون به. ولكن النمو في الأعداد لا يعني أن كل المسيحيين يعاملون معاملة حسنة، وهذا مرة أخرى يكون خياراً يحول من السلطة العليا إلى المسؤولين المحليين. فإذا كانوا لا يحبون المسيحيين، فهم يستطيعون جعل الحياة صعبة على المؤمنين، مثلما يستطيعون أن يفعلوا ذلك بالنسبة إلى كل واحد. وإذا كانوا لا يأبهون بالمسيحية، فآنئذٍ تكون الحياة أنعم، مثلما يبدو أنها كذلك هنا في شوانغ جوا. لقد زرت قرى في الصين الشرقية قام فيها المسؤولون المحليون بتشجيع المسيحية أيضاً. والمسيحيون هناك، كما يقولون، هم الوحيدون الذين يطيعون القانون، ويدفعون ضرائبهم.

بعد نصف ساعة من الوقت الذي كان يجب أن تبدأ فيه الشعائر، يقترب شاب بوجه ودود ويقول يبدو أن القس لن يأتي. وينظر كل واحد حوله نظرة محزون لا يتعزى. الجدة الثانية تتمتم همساً خفيفاً بشيء ما. ثم إن الشاب أظهر أن لديه تصوراً للواقع عن طريق حدسه المفاجئ.

«شخص المحيط، يستطيع أن يخطب الموعظة!»

واستدارت عيون كل الحضور إلي، وكان هناك وقفة صغيرة جداً والفكرة تتغلغل في أذهانهم وفي ذهني. واعترضت بأنني لست معتاداً على خطبة المواعظ، وبالتأكيد ليس بالصينية. والرجل مصر في طلبه، وعيناه تلتمعان من تألق اقتراحه. ومن سوء الحظ، أن الكنيسة كلها في الحال قبلت الفكرة أيضاً. وتجمع كل الحضور حولي، يتحدثون بلغة ماندرين ثقيلة اللهجة لا أكاد أفهمها، وهم يقولون نعم، أنا سأكون الشخص الذي سيخطب الموعظة. وقالوا، إن الله قادني هنا، وهكذا يجب أن أخطب الموعظة. ولم يسألني أحد مجرد سؤال إن كنت مسيحياً.

وتقول الجدة الثالثة، وهي تمسك بذراعي «لا تستطيع أن تغادر هنا حتى تكون قد خطبت لنا الموعظة!»

«ولكنني لست مؤهلاً لأخطب المواعظ. فأنا لم أذهب إلى كلية لاهوت».

ليس هناك مهرب. وتزداد الابتسامات سعة، ويصير التوسل أكثر إصراراً. وأشعر أنني لا أستطيع أن أغادرهم فقط في موقف حرج. وهكذا أوافق أخيراً. أمسك إنجيلاً مسيحياً، وأتذكر محادثتي مع الناسك قبل أيام قليلة فقط، وأقف وأعظ في يوحنا 14: 6 «قال المسيح، أنا الطريق، والحقيقة، والحياة. ما من إنسان يأتي إلى الأب إلا من خلالي».

والرؤوس تومئ بأدب وأنا أخطب متردداً أمام الجميع. والجدات الثلاث ينظرن بنظرات جانبية من خلال نظاراتهن إلى المنظر الغريب. وطفل جالس في المقدمة يهمس بشيء غير مسموع في أذن أمه. وحين تنتهي الموعظة، اقترح أن نقول صلاة، وأنا نفسي أقول واحدة بصوت عال، باللغة الصينية. وبدأ جمهور المصلين آنئذٍ

يصلون بصوت عال. شخص واحد بعد آخر، متغاضين عن الموعظة البسيطة نوعاً ما التي خاطبتهم بها قبل قليل وشاكرين الله على هذا الشخص القادم من المحيط الذي أدى الرسالة، وداعين الله أن يباركه ويباركهم، وقائلين بعدئذ ببساطة: «شكراً لك، يا الله، على حبك».

هناك نقاء وشدة بالنسبة إلى المؤمنين المسيحيين في الصين، وهي تفيض في صلواتهم. أذكر المسيحية للشعب الصيني العادي، فلا يكونون مثقلين بصور الجنود الذين يحاربون حروباً صليبية، ولا بصور البابوات الزناة، أو بالسياسيين من جناح اليمين. لقد سمعوا عن هذا المعتقد متأخرين نسبياً في تاريخ الإيمان الطويل والملتوي، وبالنسبة إليهم إنه مسألة تخص القلب. وربما تكون هذه هي الكيفية التي يفترض أن الدين كان عليها، وأنا أفكر في نفسي، وكلمة «آمين» النهائية ترتفع من جمهور المصلين.

وهم جميعاً يفتحون أعينهم وينظرون إلى أعلى في صلواتهم. وقلة منهم تبدو مندهشة وهم يرونني مازلت واقفاً هناك. وأقترح أن ننشد ترتيلة، والرجل صاحب النظارات السميكة يجلس خلف الأرغن القديم المتهاوي على نحو مضحك يبدأ بإصدار لحن الترتيلة الختامية، التي يشارك فيها كل واحد من جماعة المصلين. وينتهي الإنشاد، وأتمنى لهم بركات عديدة وأشكرهم على ضيافتهم. وتنهض الجدات الثلاث ببطء وبحركة موحدة ويطلبن مني أن أبقى لتناول الغداء. وأشرح لهن أنني يجب أن أصل بينغليانغ مع المساء.

وتكرر الجدة الأولى «بينغليانغ؟»، وكأنها نهاية الأرض. وتشرح بصوت عال للجدة الثانية، «إنه ذاهب إلى بينغليانغ»، وكانت الجدة الثانية قد أمسكت بيدي ولا تبدي أي علامة على تركي أذهب.

وتسأل الجدة الثانية «بينغليانغ؟ حسناً، إذا كان عليك أن تصل إلى بينغليانغ مع غروب الشمس، فمن الأفضل أن تكون على الطريق». وتنظر نظرة عميقة في عيني وتبتسم ابتسامة بلا أسنان، ونحن كلنا نتحرك نحو الباب ونمشي خارجين إلى الطريق معاً.

إلفيس وزوجته كانا يجلسان صابرين في السيارة طوال الوقت، غير مدركين للدراما الروحية التي كانت تتكشف داخل الكنيسة. ولكن لا يبدو أنهما كانا منزعجين جداً من الانتظار. فهما متفرغان في رحلة مدفوعة التكاليف إلى لانجو، وهكذا فالتوقف لساعتين أو نحوهما ليس مشكلة، على الرغم من أنهما، على ما يبدو، محتاران باهتمامي بتعقيدات الحياة الريفية.

كان وقت الغداء قد حان في الوقت الذي كنا نسوق مبتعدين عن الكنيسة، وهكذا فليس بعيداً بعد المسير على الطريق، يقف إلفيس عند صف من المطاعم الوسخة لنتناول بعض الطعام. ونختار مطعماً من أوسع المطاعم ونخطو إلى الداخل. وتبرز أمامنا امرأة جذابة من خلف ستارة في مؤخرة الغرفة. وهي تلبس لباساً خيالياً مضحكاً وتضع زينة ثقيلة، وتنظر إلي وكأنني قد أكون راغباً بأكثر من طاس من حساء المعكرونة الطويلة. والباب خلف الستارة مفتوح مواربة، وأستطيع أن أرى في الداخل سريراً. من الواضح أن هذا حانوت الوقفة الواحدة، ففيه يستطيع سائقو الشاحنات، أو أي شخص على الطريق، أن يتوقفوا ليشبعوا كل حاجاتهم الجسدية. وفوق كل ذلك، صورة للرئيس ماو تنظر إلى أسفل من جدار قذر، متقشر. مرحباً بك في الصين الحديثة، أيها الرئيس. إنها كلها تعود دائرة في دورة كاملة.

لا أعرف ماذا كانت تقدم من خدمة تلك المرأة ذات اللباس المتألق الزهري خلف الستارة، ولكن الطعام الذي طبخته كان لذيذاً. ونحن في سفرنا نغادر تدريجياً أرض الرز الآن، وندخل أرض المعكرونة الطويلة. وتأثير الشمال الغربي المسلم يتغلغل نحو الشرق في الطعام، وفي الروائح، وفي نظرات الناس وفي الموسيقى. وإلى جانب طاس يتصاعد منه البخار من حساء المعكرونة الطويل مع لحم العجل السميك، ترتفع طاولة الغداء بصحن من كباب لحم الخروف، وبعض الدجاج المبهر، زائداً بعض الصحون التي لم أعرفها أيضاً. وأحد الأشياء العظيمة المتصلة بالسفر في الصين هو أن الطعام جيد للغاية. يمكنك أن تكون في وسط أي مكان ناء غير معروف، وتدخل في مكان ما صغير مثل هذا المكان، ويقدم لك طعام وجبة مقلية على عَجَل. وقد تكون أطعمة دجاج كنتاكي المقلي (كي اف سي) وماكدونالد في طريقها إلى إحداث تقدم لها لدى

أصدقاء التذوق في المدن، ولكن الطعام الصيني التقليدي بالنسبة إلى أكثرية الشعب الصيني، وهو طعام مختلف للغاية من منطقة إلى منطقة، يوفر بعض الاستمرارية التي تبقى موضع ترحيب في عصر هو عصر الانقلاب الفجائي. والناس الآن يملكون اللحم، لا مرة في الشهر، ولا مرة في الأسبوع، بل في كل يوم.

الأجزاء القاحلة جداً من شانسي، ومن جملتها القاعدة القوية السابقة للحزب الشيوعي في يانآن، تقع على مسافة أبعد إلى الشمال، خارج نطاق وصول الطريق 312، ولكن هنا أيضاً يتلوى الطريق الأسود في مساره عبر منظر طبيعي أصفر بشكل متزايد. وهو معروف باسم هضبة الرواسب الطفاليّة الدقيقة الحبيبات (تربة اللوس)، وهو تعبير نادراً ما يستعمل في الغرب خارج الدوائر الجيولوجية ذات الصلة بالطفال الرملي ولكنه مستعمل في كل الأوقات من الصينيين المتحدثين بالإنجليزية. وفي الصينية، كما هو معتاد، الكلمة المستخدمة منطقية أكثر بكثير، فهي تعني حرفياً «التربة الصفراء للسهل العالي». وتمتد هضبة تربة اللوس بين سهل الصين الشمالي، حيث تقع بكين في الشرق، وبين صحراء غوبي في الغرب. والكثير من الأرض هنا يقع فوق مستوى ارتفاع أربعة آلاف قدم، مع وجود الجدار العظيم الذي يشكل حدود الهضبة إلى الشمال. وكانت الأرض الصفراء دائماً صعبة الفلاحة وقابلة للانجراف المائي. ونادراً ما ينزل المطر هنا، ولكنه حين ينزل يستطيع أن يعيد تشكيل المنظر الطبيعي. ويستطيع سقوط المطر الغزير أن يتسبب في سقوط قطع كبيرة من الأرض بعيداً، وتكون المنطقة كلها متشققة بوديان عميقة طويلة احتفرها السيل ومنحدرات شاهقة من اللوس التي تكون فيها التربة قد انهارت مثلما ينهار جبل ثلجي كبير أصفر ذائب.

وعلى الرغم من أنها منطقة ليست خصبة على السطح، فهي تحت الأرض تملك بعضاً من أغنى رواسب الأمة من الفحم، وليس بعيداً إلى الشمال الشرقي من الطريق 312 يوجد حزام كامل من بلدات مناجم استخراج الفحم. وتنتج الصين 35 بالمائة تقريباً من فحم العالم، ويوفر استخراجه من المناجم للكثيرين من الناس في بلدات شانسي الصغيرة اليائسة إمكانيتهم الوحيدة للتوظيف. وهي المنطقة التي تبلّغ عن

80 بالمائة تقريباً من الوفيات العالمية في حوادث التعدين في كل عام. فأكثر من خمسة آلاف عامل مناجم يموتون في عام متوسط في الصين في مناجم الفحم غير الكفؤة، وغير الآمنة بشكل مزمن (وأولئك هم العمال الذين يُبلّغ عنهم فقط). وذلك الرقم أكثر من مائة ضعف من عدد العمال الذين يقتلون في المناجم الأمريكية.

وهذه في الصين الحديثة واحدة من أشد سلاسل الطعام الاقتصادي قسوة ووحشية. فالحكومة تحتاج إلى الفحم لتوقد للمصانع لإبقاء الاقتصاد في حالة نمو لتمنع السخط الاجتماعي. وملاك المناجم، وهم بلا رحمة أو ضمير، يعرفون أنهم يستطيعون أن يكسبوا الكثير من المال من بيع الفحم إلى الآلة الاقتصادية الصينية الجائعة، ولذلك فهم يبلغون الحد الاقصى من الإنتاج على حسب السلامة. وعمال المناجم الذين ضربهم الفقر، والذين لا يملكون إلا أملاً قليلاً فوق راتبهم القادم، ينزلون في بئر المنجم، مع أنهم يعرفون أنهم غير آمنين. وتبدو حياتهم سلعة أكثر قابلية للتضحية بها من الفحم الذي ينتجونه. وتشن الحكومة من حين إلى آخر حملات صارمة ضد التعدين غير القانوني وتحاول تنفيذ معايير السلامة، ولكن مثلما هو الحال في كل مكان في الصين، فإن مثل هذه التشديدات في الإجراءات تتضارب مع الحاجة العامة للمحافظة على نمو الاقتصاد، وهكذا فإن الأفاعي المحلية من المسؤولين في المناطق نادراً ما يصغون للتنين القوي المفترض في بكين.

السيد والسيدة إلفيس ينتظرانني بصبر ريثما أخرج من السيارة بعد كل خمسة أميال أو عشرة أميال لأتحدث إلى الفلاحين في الحقول. ونحن نخرج من الطريق إلى جانب بعض الكهوف القائمة إلى الخلف من الطريق تماماً ونتحدث إلى العائلات التي تسكن فيها. وللكهوف أبواب خشبية مناسبة ونوافذ في مقدمتها، ومناطق داخلية منها تختفي عميقاً في داخل المنحدرات الشاهقة. ويقول الفلاحون إنها دافئة جداً في الشتاء وباردة جداً في الصيف، ويدعونني إلى الداخل. ونتحادث حول الكفاح من أجل جعل الوسائل المالية تفي بحاجات الإنسان على حافة هضبة تربة اللوس. الناس فقراء ولكنهم كرماء، ونحن نجلس ونتحادث ونضحك معاً، وأنا أعجب من قدرتهم على احتمال مثل هذه الصعاب وعلى رغم ذلك يرحبون بغريب مثلما يرحبون بابن

طال افتقاده. جميع العائلات لهم أطفال في المدن. وبعضهم سافر إلى شيان، وبعضهم سافر غرباً إلى لانجو بل إلى أورومجي. وهي مدن تقع على طول الطريق 312 وسوف أزورها. وما من واحد منهم يعتمد فقط على الزراعة بعد الآن.

وتوجد مشكلتان كبيرتان تواجهان الناس الذين يعيشون في هذا الركن الذي يضربه الفقر من الصين، والذي يكشف الهشاشة البيئية والاجتماعية للصين والكامنة غير بعيد تحت المظهر الخارجي للقوة العظمى المفترضة. وكل مسألة منهما تسبب تمزقات في نسيج المجتمع الصيني وتستطيع أن تصل إلى أن يكون لها مضامين كبيرة بالنسبة إلى البلاد.

أول المشكلات جميعاً، هي أنه لا يوجد ماء في الصين الشمالية. فالأنهار كلها جفت، كما يقول الناس، ويتوجب عليهم أن يقوموا برحلة بطيئة لعدة أميال لجلب ماء الشرب من أنبوب ماء في أقرب بلدة. وهذه مشكلة ضخمة. والنهر الأصفر الذي يتدفق من الهضبة التيبتية عبر الأرض الصفراء من شانسي ويجب أن يصب في بحر الصين الشرقية، نهر مستخدم استخداماً مفرطاً جداً إلى درجة أنه في ثمانية عشر عاماً من آخر خمسة وعشرين عاماً من القرن العشرين كانت هناك فترات فشل فيها النهر في الوصول إلى البحر. وفي أحد الأعوام، في 1997، فشل في الوصول إلى البحر طوال 226 يوماً، ولمدة طويلة من ذلك العام لم يصل النهر ولو إلى شاندونغ، وهي آخر مقاطعة يفترض أنه يمر عبرها قبل أن يصل إلى المحيط. وهذه حالة غير عادية بالنسبة إلى النهر الذي يُعد رابع أطول نهر في العالم. وقد أطلقت الحكومة الآن خطة دعتها «مشروع تحويل الماء من الجنوب إلى الشمال»، وهو مخطط يكلف بلايين عديدة لبناء ثلاث قنوات سوف تحول الماء شمالاً من النهر الأصفر من يانغسي.

والكثير من الماء المتوافر ملوث تلوثاً خطيراً، والمسؤولون المحليون غير مستعدين لمعالجة مياه المجاري أو تدفقات السوائل من المصانع أو إغلاق المصانع الملوِّثة، وذلك خوفاً من إبطاء النمو الاقتصادي. فلو تباطأ النمو هنا، كما هو في كل مكان في الصين، فإن من المحتمل أن يزداد عدم الاستقرار الاجتماعي.

مستوى المياه الجوفية في الصين الشمالية يهبط بمتوسط سبعة أقدام في العام، إذ يقوم المسؤولون في المدن باستنزاف طبقات المياه الجوفية من أجل الحصول على الماء الذي تحتاج إليه مدنهم على نحو يائس.

وقد وصلت الحالة إلى نقطة الأزمة.

والمشكلة الكبرى الأخرى في هذه المنطقة الفقيرة، الفقيرة جداً هي أن قلة من أبناء الفلاحين يستطيعون الحصول على زوجة. فكثير من النساء أجهضن جنيناً أنثى في مطالع الثمانينيات من 1980، حين فرضت سياسة الطفل الواحد، والسبب هو أن الناس إذا كانوا لا يستطيعون أن ينجبوا إلا طفلاً واحداً فقط، فقد أرادوا الطفل أن يكون ولداً. والآن وصل ذلك الجيل من الرجال إلى سن الزواج، وتوجد قلة قليلة جداً من النساء المتوافرات للزواج. ومرة أخرى، المشكلة هي نفسها في جميع أنحاء الصين. وتقول الحكومة إن الصين ستكون بحاجة إلى 30 مليون عروس مع حلول العام 2020. تقول إحدى الأمهات اللواتي أقابلهن إن الأمل الوحيد هو أن ولدها البالغ من العمر الثالثة والعشرين سوف يذهب إلى المدينة ويقابل فتاة مهاجرة هناك، وتقول: «إنه لن يجد زوجة هنا قط. بل إنه لو وجدها، فثمن العروس سيكون عالياً جداً». اقتصاد السوق شغال، ومن جملة ذلك في اختيار رفيقة العمر أيضاً.

كنت في العام الفائت قد قابلت مجموعة من الكوريين الشماليين الذين فروا إلى الصين وهربوا إلى الأرض الداخلية إلى نينغشيا، وهي قريبة إلى حدٍ ما من المكان الذي أنا فيه الآن. وكانوا قد قالوا لي إنه كان يوجد الكثيرات من النساء الكوريات الشماليات هناك وهن اللواتي باعهن وسطاء ليكن زوجات للفلاحين الصينيين المحليين. وبعد أن أنهيت رحلتي مباشرة، روت الصحافة الصينية توقيف تسع وستين امرأة من بورما كن قد هُرِّبن إلى مقاطعة هينان، التي كنت قد عبرتها قبل قليل، وجرى بيعهن مقابل ألفين وخمسمائة دولار للواحدة لفلاحين صينيين يائسين في البحث عن زوجات. والمعدل الرسمي لجنس المواليد في العام 2005 كان 118 ولداً في مقابل 100 بنت من المواليد، ولكن المعدل في بعض القرى يصل إلى 140 مقابل 100.

عبر الصين الريفية هناك ملايين القصص الشبيهة بهذه. نقص الماء، نقص النساء، نقص الفرص، على الرغم من الحراك الجديد الذي جاءت به الطرق وشبكة السكك الحديدية. الصين الريفية تتغير، وحياة بعض الفلاحين يجري تحويلها. والكثير من إيقاعات الحياة الريفية قد تم كسرها. والموقف العقلي للفلاحين يتغير أيضاً. ولكنه تحولٌ ليس سهلاً، وهم قادمون من مستوى معيشي منخفض جداً بالفعل. في الصين الحضرية، أنت تستطيع أن ترى متابعة السعادة وهي تبرز. في الصين الريفية، مازالت المتابعة هي من أجل البقاء على قيد الحياة. فكر في الشخصيات الريفية في روايات كاتبة مثل جورج إليوت. فكر مثل توماس هاردي. فكر في نهاية (عمدة كاستربريدج): «لم تكن السعادة سوى حادثة عرضية في دراما عامة من الألم». ذلك هو المكان الذي يأتي منه الفلاحون الصينيون، المكان الذي يحاول 750 مليون نسمة تقريباً أن يهربوا منه. الآن، بعض الفرص موجودة هناك، مثلما لم تكن قط من قبل، وعلى نحو بطيء يجري صنع طريق من الكثيرين، الذين يخرجون من الأرياف من فقر عمره قرون. ولكنه طريق طويل، وهو طريق صعب.

وأخيراً، حين استطالت الظلال في شمس المساء، أصل أنا وإلفيس، والسيدة إلفيس مدينة بينغليانغ. والطريق السريع الجديد، بمساره الأكثر استقامة مباشرة إلى لانجو، قد أخذ الكثير من المرور بعيداً عن بينغليانغ، ولكن في هذه المنطقة أيضاً، هناك مواقع إنشاءات في كل الاتجاهات. وكما هو معتاد، هناك فندق كبير واحد في البلدة، وأسجل وصولي فيه. وهو يكلف عشرين دولاراً تقريباً لغرفة معقولة مع حمام. وكما هو معتاد، هناك العديد من السيارات الكبيرة من المركبات الرياضية للنفع العام (اس يو في) مصفوفة في الخارج، ومعظمها تحمل لوحات ترخيص رسمية. وخارج المدخل تماماً يوجد بار كارايوكي. أغمض عينيك ويمكنك أن تكون في مدينة صغيرة في أي مكان على طول الطريق 312. ستجد فن العمارة، والإنشاءات، وبارات الكارايوكي، والإحساس بالتحسن المتواضع في أسلوب المعيشة، وغياب أي علامات للفقر المذل المقنط، ولكن ستجد مع ذلك الشعور بأن الأمر سوف يستغرق مدة طويلة، طويلة للوصول إلى أي شيء فيما وراء «الرفاهية المعتدلة».

كان يوم سياقة طويل. وبعد وجبة سريعة معاً، نقول تصبحون على خير وننام مبكرين، والأصوات البعيدة المنتحبة المنبعثة من بار الكارايوكي ترجع أصداءها في المساء الصيفي الحار.

في الصباح التالي، أستيقظ متألقاً وممتلئاً بالحيوية وجاهزاً للوصول إلى الطريق. وأتجه مباشرة إلى غرفة الطعام في الفندق، وأنا أعرف، أن هذا الفندق، بالنظر إلى أنه فندق صيني بأكمله، لن يكون لديه تقريباً أي شيء أريد أن آكله. ومع الأخذ بعين الاعتبار اللذاذة العامة للمطبخ الصيني، فقد كان دائماً سراً خفياً بالنسبة إلي كيف يمكن أن تكون وجبات الإفطار الصينية سيئة إلى هذه الدرجة. فأنت ستظن أنهم بعد خمسة آلاف سنة من الحضارة المستمرة سيستطيعون أن يقدموا شيئاً ما أفضل من خضرة مخللة وعصيدة الرز. وكنت أفكر في توبيخ الموظفين عند هذه النقطة. ولكني أدرك أنني لا أعرف كيف أقول «حبيبات الرز المحمص» باللغة الصينية، وهكذا أمسك باثنتين من لفافات الخبز المُحلَّى، وأجلس في الركن من غرفة الطعام مع إبريق من الشاي الصيني.

ويكافح إلفيس وزوجته نازلَين بعيون مغبشة بعد عشر دقائق تقريباً، وبعد قليل كنا راجعين إلى الطريق 312، متجهين إلى الشمال الغربي.

ويبدو إلفيس وزوجته هذا الصباح متحابين حباً عميقاً بالنسبة إلى زوجين مضى على زواجهما مدة طويلة. وتبدأ هي بتقشير بعض التفاحات وتضع الشرائح في فمه مع ابتسامة له وهو يسوق، ربما يكون الحب في الصين غير ميت.

لم نذهب بعيداً في الطريق، مع ذلك، قبل أن تنحرف السيارة قليلاً، ويهز إلفيس نفسه في وضع قائم. إن الساعة هي التاسعة صباحاً، وهو ينام على المقود. الطرق الصينية خطرة خطراً كافياً من دون سائق نعسان يسوق متجولاً من جانب إلى جانب آخر في كل أنحاء المكان.

وتشرح السيدة إلفيس وتقول: «سهر يشاهد التلفاز». وهي تدفعه بكوعها قليلاً، وكأنها تحثه على تمالك نفسه.

علم الحزب الشيوعي يرفرف فوق المنظر غير الشيوعي تماماً من شارع شنغهاي الرئيسي المسمى شارع البند، والذي يسير محاذياً على طول ضفة نهر هوانغبو. وهذا هو المنظر من شرفة مطعم المرتفعات الجديدة (نيو هايتس).

الشيوعية مغموسة الآن في ألق أضواء النيون، وقد ساد اقتصاد السوق في كل أنحاء الصين. وهذا هو الشارع الأسطوري للتسوق في شنغهاي، طريق نانجينغ.

شابتان عضوتان في الحزب الشيوعي، إميلي ولوسي، تذهبان للتسوق لشراء الأحذية في واحد من أضخم مخازن شنغهاي المتخصصة. مازال الالتحاق بالحزب تذكرة للحصول على عمل، ولكن الذين يشجعون على الالتحاق بالحزب الآن هم أذكى الناس، وليس أكثرهم أدلجة.

مطاعم هوترز فتحت أول فرع لها في شنغهاي، ويتم تشجيع الزبائن على المشاركة في الترفيه المسائي.

عامل مهاجر يعمل تحت متاهة من الطرق السريعة التي تظلل بداية الطريق 312 في الضواحي الغربية لشنغهاي.

في كل أنحاء شنغهاي، وفي معظم المدن الصينية الأخرى، يجري هدم المباني القديمة لإفساح الطريق للمباني الجديدة.

الصين ورشة عمل العالم. وقد تقاطر إليها ملايين من العمال المهاجرين إلى المدن الساحلية للعمل في المصانع مثل هذا المصنع الموجود في شنغهاي. وكثيرون يكسبون 150 دولاراً في الشهر فقط، ولكن ذلك أكثر مما اعتادوا أن يكسبوه في العام في الزراعة في الأرياف.

أعضاء نادي شنغهاي لسائقي الجيب في الأرض الوعرة متجهون إلى الطريق 312 من أجل يوم استطلاع. وهم من اليسار إلى اليمين، كامل، وجانغ العجوز، وتينتن، وليو الصغير.

شاحنات وركشات، وحافلات ركاب ودراجات تتزاحم على الحيز في مسارات مزدحمة من الشارع 312 في ضواحي شنغهاي.

جسر نهر يانغسي، اكتمل في العام 1968، يعبر أطول نهر في الصين عند نانجينغ. الطريق 312 يمر على طول الطبقة العليا. والسكة الحديدية من شنغهاي إلى بكين يمر على طول أسفل الجسر.

حفرة الآلاف العشرة من الجثث في المتحف تحيي ذكرى 300,000 صيني مدني قتلتهم القوات اليابانية في مجزرة نانجينغ في العام 1937.

الحياة في الصين الريفية لم تتغير في قرون. والذي تغير هو أنه يوجد الآن مخرج، على طول الطريق 312 والطرق الأخرى، إلى أعمال متوافرة في المدن.

معظم الريفيين غير قادرين على اقتناء سيارات، ويسافرون بوسائل أساسية. بل إن تراكتوراً صغيراً مع مقطورة مرتبطة به يمكن أن يكلف مكاسب سنتين.

في كل بلدة في الصين يوجد بارات إنترنت، وهي دائماً مليئة بالناس المرتبط أحدهم بالآخر ومع العالم الخارجي.

نظام الصين الاشتراكي الذي كان يوفر الوظائف مدى الحياة انهار، والكثيرات من النساء غير المتعلمات يجدن أن الطريقة الوحيدة الآن لكسب المال هي أن يتحولن إلى «مضيفات» في واحد من بارات الكارايوكي العديدة التي تصطف في الشوارع في كل بلدة.

محطة طاقة تضخ التلوث أمام الجبل المزهر (هوا شان) وهو واحد من جبال الصين الطاوية المقدسة.

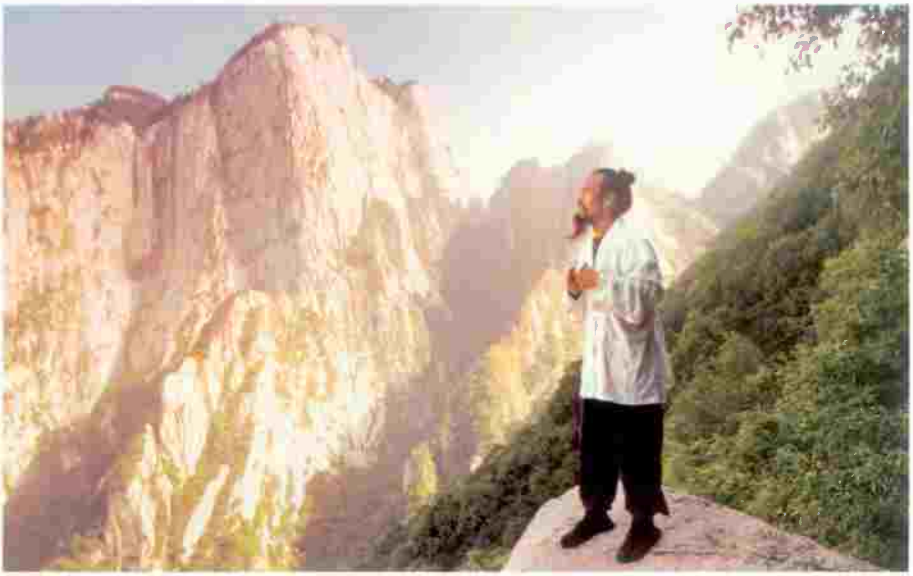

ناسك الجبل المزهر، يقف أمام واحد من وجوه الجبل الصخري الحاد الأبيض.

جيش تيراكوتا في شيان. يوجد أكثر من ثمانية آلاف تمثال في مجملها، وكل واحد بملامح وجهية فردية. وصُنِعت تماثيل أولئك الجنود في القرن الثالث قبل الميلاد، لحراسة ضريح أول إمبراطور للصين شين شهيوانغ.

محطة حافلات الركاب في الصين، مثل هذه المحطة في المدينة الغربية لانجو، هي دائماً خلية نحل من النشاط، والناس والسلع يتدفقون شرقاً وغرباً.

الطريق 312 يعبر النهر الأصفر في قلب لانجو، وهي واحدة من أكثر مدن العالم تلوثاً.

الطرق السريعة بين الولايات أخذت بعض المرور بعيداً عن الطريق 312 وهو يمر عبر المقاطعات الوسطى في آنهوي وهينان، ولكن الكثير من الشاحنات، وحافلات الركاب، والسيارات مازالت تسافر على طول الطريق.

عروس ريفية، تلبس اللون الأحمر التقليدي لزفافها، وتستعد لتسوق السيارة إلى بيت زوجها الجديد. والشاحنة في الخلفية محملة بهدايا مهرها.

طلب من المؤلف أن يلقي موعظة في كنيسة بروتستانتية صغيرة في مقاطعة شانسي.

راهب يتحدث في هاتفه الخليوي الجوال على تلة تشرف على دير لابرانغ في بلدة شياهي. آلاف من الرهبان الآن يعودون للدراسة في الدير، على حافة الهضبة التيبيتية، بعد عقود من الاضطهاد.

رهبان تيبيتيون من دير لابرانغ للنظر في الإنترنت وتصفحها وتشغيل فيديو مباشر للألعاب في مقهى إنترنت شياهي.

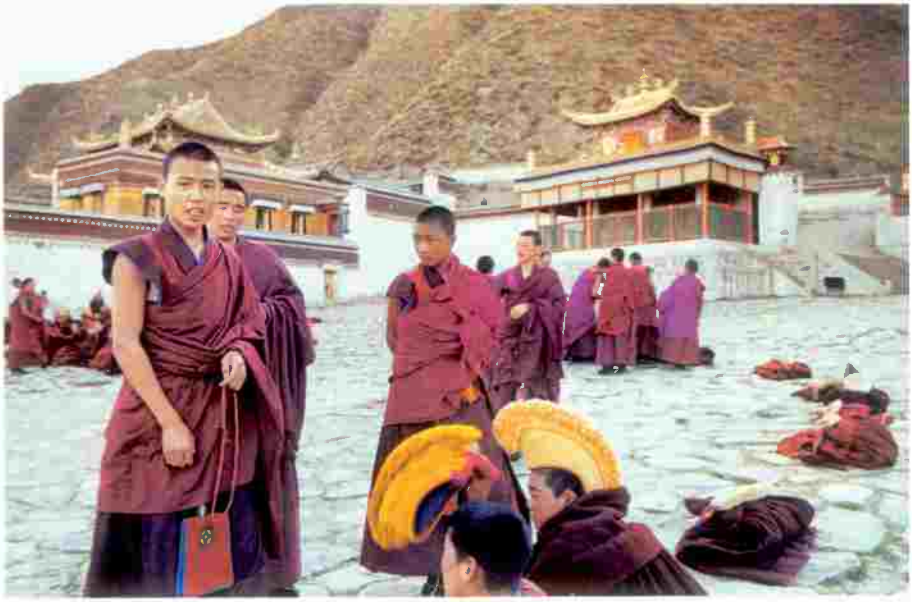

رهبان شباب يتجمعون خارج دير لابرانغ.

لي كيجين يعرض بفخر بعضاً من منتجاته آموي. لقد ترك وظيفته الحكومية ليكون ممثلاً لشركة البيع المباشر الأمريكية في بلدة صحراء غوبي في جانغيي.

القلعة في جيايوغيوان، أبعد نقطة في الغرب من الجدار العظيم. وهي تعرف تقليدياً باسم «فم الصين» وكانت القلعة قد بنيت في القرن الرابع عشر للمساعدة على إبقاء «البرابرة» بعيداً إلى الشمال الغربي.

السياح الذين يبحثون عن خبرة أصيلة في طريق الحرير يستطيعون أن يركبوا جملاً عبر الرمال الصافرة المغنيّة في دونهوانغ، وهي من أشهر البلدات الواحات في الصين الغربية.

لعبة أخرى مفضلة لتمضية الوقت في دونهوانغ هي التزلج على الرمل. ويستطيع الزوار أن يجلسوا على صواني صغيرة وأن يدفعوا أنفسهم نزولاً على الكثبان الرملية.

الحروف الصينية تتزاحم مع الحرف العربي من لغة الويغور عند اتجاه الطريق 312 بعيداً إلى الشمال الغربي.

الطريق 312 يتقاطع مع مقطع صغير مكسر من الجدار العظيم في المقاطعة الشمالية الغربية غانسو.

بحيرة السماء المذهلة تقع في فجوة في الجبال التي تتصاعد خارجة من الصحراء، على بعد ستين ميلاً من الشمال الشرقي من أورومجي.

حافلات الركاب للمسافات البعيدة تقطع الطريق 312 متجهة شرقاً وغرباً. أسرة النوم فيها ضيقة ولكنها مريحة، وتستطيع أن تسافر بشكل رخيص، رحلة تستغرق ست عشرة ساعة وتكلف في العادة خمسة عشر دولاراً تقريباً لا أكثر.

الكثير من مناظر وروائح منطقة شينكيانغ الشمالية الغربية هي مناظر وروائح آسيا الوسطى. وهنا مجموعة من الموسيقيين الويغور يؤدون عزفاً بشكل غير رسمي في شارع في أورومجي.

نهاية الطريق. المؤلف وهو يقف أمام معبر الحدود إلى كازاخستان في البلدة الصغيرة كورغاز.

نهاية الطريق 312 في كورغاز. شاحنات تحمل سلعاً صينية تنتظر لتعبر الحدود إلى كازاخستان. وتقول الصوَّة «4825 كيلومتراً» (2998 ميلاً)، المسافة في بداية الطريق في شنغهاي.

ويحاول إلفيس أن يكمل اللعبة: «أوه. كما تعرف، مجرد فيلم جيد».

«لابد أنه كان جيداً لك فعلاً أن تسهر لساعة متأخرة جداً». قلت ذلك وأنا أرفع حاجبي عالياً بالفعل، وهو ينظر في منظر المرآة الخلفية ليراني أنظر إليه مباشرة مع ابتسامة باهتة مرتسمة على وجهي.

ويقول وهو يدرك أن أمره قد انكشف: «نعم، كان الأمر كذلك».

وسادت لحظة من الصمت الحرج، ولكن كل واحد منا بعدئذٍ كان قد استقر مع الواقع الجديد. ومن دون أن يكون أي شيء قد قيل مباشرة، توصلنا إلى تفاهم هادئ، وهو ما كان إلفيس و«زوجته» يتوقعانه في المقام الأول. فالصين هي في المقام الأخير بلد لا تسأل، ولا تخبر. ربما تكون مقولة «انتبه لشؤونك الخاصة» هي أول وصية للكونفوشيوسية (ثم للشيوعية أيضاً).

ونتوقف ثلاث مرات أخرى من أجل أن يخرج إلفيس ويتمدد. وتحاول السيدة إلفيس أن تفعل كل شيء ممكن لإبقائه يقظاً. فهي تنخزه باستمرار وتلمسه من حين إلى آخر بقماشة الوجه الرطبة التي تحملها. ونتوقف من أجل فسحة استراحة في غرفة استراحة، وتقوم هي بتدليك ظهره وأكتافه وضربه عليهما. بل هي تحاول أن تجعله يقفز ويرقص على جانب الطريق كي توقظه. وأقترح أنه ربما يجب علي أن أسوق، ولكنه يصر أنه صاحٍ بشكل كامل.

وسرنا في طريقنا عبر الحدود إلى مقاطعة غانسو، وهي برية، وشاسعة الانفتاح، والبوابة إلى الصين الشمالية الغربية، حيث ستذوب التربة الصفراء بعد قليل إلى الصحراء الحقيقية الكاملة. والتلوي البطيء الذي صار عليه الطريق 312 بمساريه يتصل فجأة مع الطريق السريع بأربعة مسارات، والذي انطلق مباشرة خارجاً من شيان إلى لانجو. ومررنا على رجل وظيفته أن يلتقط القطع الصغيرة من المهملات على كتف الشارع السريع الجديد، وأطلب من إلفيس أن يقف للمرة الأخيرة قبل أن نصل إلى لانجو. ومشيت راجعاً لأسأل الرجل عن عمله. وماذا كان الطريق الجديد قد فعل في حياته. ويقول بكل بساطة إن عليه أن يلتقط المهملات على طول الطريق، ويُدفع له دولاران في اليوم ليفعل ذلك. أما أكثر من هذا فهو لا يعرف.

ويتمتم «صحيح».

وآنئذٍ أدرك أن السيد إلفيس والسيدة إلفيس غير متزوجين قط. إنها عشيقته، وهما منطلقان في رحلة عشاق صغيرة إلى لانجو على نفقتي، لم يكن مستيقظاً يشاهد التلفاز. كانا ساهرين طوال الليل ليتعرفا على بعضهما على نحو أفضل.

وأسأل، «مشاهدة التلفاز، أليس كذلك؟ وماذا كان فيه؟»

عدت راجعاً من عنده نحو سيارة الأجرة، الواقفة وحدها على هذا الشارع المزفت الأسود الجديد. ودهان السيارة الأحمر هو البقعة الوحيدة من اللون في ما عداه من منظر طبيعي أصفر. والسيدة إلفيس تقود عشيقها في رقصة تانغو على الكتف الصلب من الطريق.

12
آخر إمبراطورية كبيرة

ما الصين؟ ومن الصينيون؟

مثل هذه الأسئلة قد تبدو فضولية لا داعي لها حين يحدّق الجواب خارجاً من أي خريطة أو أطلس تلتقطه. الصين بلاد لها حدود مثل أي بلاد أخرى، والناس الذين يعيشون ضمن تلك الحدود هم الصينيون. حقاً؟

حسناً، ليس بالضبط، فطوال ألف ميل، والسيارة تسوق على طول الطريق 312 من شنغهاي إلى بلدة الحدود لانجو، كان سؤال «ما الصين؟» سؤالاً من السهل نسبياً الإجابة عنه. وأنت تستطيع أن تحددها ثقافياً، وعرقياً، وجغرافياً، أو بأي طريق تحب، قد توجد آلاف اللهجات المحلية، تختلف من مقاطعة إلى مقاطعة، ولكن أي طريقة تختار أن تعرِّفها بها حتى مدينة لانجو، فهي الصين المستندة إلى الكونفوشيوسية على نحو واضح، والمسكونة بالشعب الصيني عرقياً (أو بشعب هان).

ولكن التعاريف، بعيداً هنا، وأنا أقترب من غرب الصين، تصير تعاريف ضبابية.

والمؤلف بيتر فليمنغ (الذي كتب أخوه إيان روايات جيمس بوند 007) كان مراسلاً شاباً في التايمز اللندنية حين حصل على درجة من الشهرة في الثلاثينيات من 1930 عن طريق السفر عبر الصين المفككة من بكين إلى كاشغر، في الغرب الأقصى من الصين، ومتابعة إلى كشمير البريطانية في ذلك الوقت. وفي كتابه الرائع (أخبار من بلاد التتار)، الذي نشره في العام 1936، يصف فليمنغ الابتهاج بالوصول إلى لانجو بعد رحلة دامت ثمانية أيام من «البؤس الصادم المضجر» من شيان.

يوجد سوق (بازار) أقرب كثيراً في جوه إلى أسواق آسيا الوسطى منه إلى أسواق بكين. والسوق كله مختلف جداً عن الصين التي تراها من موانئ المعاهدة، وهنا يراودك الشعور بأنك على حدود أرض أخرى، وأنك قد وصلت تقريباً إلى حافة الصين. مثلما قد فعلتَ فعلاً.

كانت لانجو، ومازالت، هي نهاية الصين المتجانسة، الصين الصينية عرقياً. وهي تقع في المكان الذي تبدأ فيه الصفائح التكتونية لصين هان بالاحتكاك ضد صفائح آسيا الوسطى. مازال أمامي على الأقل ألف وخمسمائة ميل لأقطعها في رحلتي على طول الطريق 312 إلى حدود الكازاخ. وحسب المسافة، لا تقع لانجو في منتصف الطريق بالتساوي عبر البلاد. ولكن المنطقة التي أوشك أن أقطعها مسكونة بالعديد من الشعوب المختلفة الذين ليسوا صينيين عرقياً. وهم يعيشون داخل حدود جمهورية الصين الشعبية، ولكن الكثيرين منهم لا يشعرون بأي انتماء للصين أو للثقافة الصينية. فدينهم، وتاريخهم، ولغتهم، وكل نقطة مرجعية تهتم بذكرها هي نقطة مختلفة عن تلك التي تخص هان الصينية، ومع ذلك تقول بكين إنهم صينيون. ومعظم من يدعون شعوب أقليات يعيشون بسلام داخل الدولة الصينية. ولكن كثيرين من التيبيتيين وأعضاء من مجموعة الويغور العرقية، الذين يسكنون الغرب، يعتقدون أن المناطق التي يعيشون فيها لا يجب أن تكون جزءاً من الصين، وتوجد حركات داخل الصين وخارجها لمقاومة الحكم من بكين.

والأسباب الداعية لهذه المقاومة لها جذورها في طبيعة الدولة الصينية نفسها، والتحول الكامل التي عانته في السنوات المائة والخمسين الماضية.

وطوال قرون (في الحقيقة طوال ألف سنة) كانت الصين قد تحددت إلى حد كبير لا بالأرض التي حكمتها، بل بثقافتها، وهو أمر شبيه بالكيفية التي حدد فيها مفهوم المسيحية أوروبة قبل مجيء الدولة الأمة في القرن السابع عشر. ما جعلك صينياً في الماضي لم يكن إلى حد كبير أين كنت تسكن (على الرغم من أن ذلك كان جزءاً منه) بل إن كنت قد قبلت تعاليم النصوص الكونفوشيوسية القديمة، والنظام البيروقراطي للحكومة، والسلطة الإمبراطورية الصينية. وكان البرابرة الموجودون على أطراف الإمبراطورية يستطيعون أن يتحولوا إلى صينيين عن طريق تبني الطرق الصينية، وبعضهم فعل، تماماً مثل البرابرة في أوروبة القديمة الذين كانوا يستطيعون التحول إلى رومانيين بتبني الطرق الرومانية، وبعدئذٍ، في أثناء عصور الظلام والعصور الوسطى، كان الكفرة يستطيعون أن يصيروا جزءاً من «العالم المسيحي» عن طريق قبول المسيحية.

بالنسبة إلى الصين، مع ذلك، كان هناك أيضاً نوع من منطقة الغسق للشعب الذي كان يعيش على الأطراف، الذين لم يتبنوا الطرق الصينية ولكن الإمبراطور والمسؤولين في بكين عدوهم جزءاً من الإمبراطورية، وجزءاً من العائلة الإمبراطورية العريضة. وكان هذا صحيحاً على وجه الخصوص بعد غزوات القرن الثامن عشر حين غزت الإمبراطورية الصينية ودمجت تركستان الصينية (التي تسمى الآن شينكيانغ) التيبت. والويغور، التيبيتيون، وآخرون كانوا يرسلون إتاوة إلى بكين، وكان ذلك لمجرد إبقاء الإمبراطور بعيداً عن ظهورهم، ويكف عن مضايقتهم. وكان الحكام في بكين سعداء لإبقاء العلاقة مسترخية غير متوترة مع شعوب الحدود أيضاً، ولا يجبرونها على تبني الطرق الصينية طالما كانوا يرسلون الإتاوة وطالما ركعوا للإمبراطور حين كان يفترض أن يركعوا.

كل هذا تغير في القرن التاسع عشر، مع مجيء شعب المحيط. وأدركت نخبة الصين بالتدريج أن الغرب كان يلعب بقواعد مختلفة اختلافاً كاملاً. ها هنا كان يوجد شعب من وراء العالم الصيني، وهو لم يقبل لا الرؤية الصينية التقليدية للعالم ولا تفوق الثقافة الصينية. شعب المحيط لم يكن مهتماً بعلاقة إتاوة مع بكين. لقد جاؤوا من قارة من أمم دول متساوية، وكلهم يعيشون التفوق، وهم لا يملكون وقتاً لزعم التفوق الصيني. وأكثر أهمية من ذلك، أنهم كانوا يعرفون أن أسلحتهم الخاصة كانت أفضل على نحو لا حدود له. وحين بدأ شعب المحيط يقطع الصين، صار من الواضح في نهاية المطاف لحكام الصين أن الطريقة الصينية لترتيب العالم ثقافياً لا تستطيع أن تستمر، وأنهم إن كانوا يريدون الصين بوصفها كياناً أن تبقى حية، يتوجب على الصينيين أن ينبروا للغرب في لعبته الخاصة. وبعد الكثير من المقاومة، والبحث العميق، العميق في الروح من حيث الحوافز، والقناعات، والمواقف، استنتج كثيرون من الصينيين أنهم، لإنقاذ أنفسهم بوصفهم أمة دولة، سيتوجب عليهم أن يدمروا أنفسهم من حيث هم ثقافة.

وهكذا بدأ الصينيون يتخلصون من ثقافتهم، وطريقتهم الثقافية في تعريف من هم، وبدؤوا يفكرون أكثر على أساس الأمم الدول الأوروبية. الكتابات الكونفوشيوسية

الكلاسيكية وآلاف من السنين من التاريخ الصيني قالت إن الصين كانت مركز العالم وإن الصينيين كانوا شعب العالم المتفوق. ولكن الهزائم العسكرية والمعاهدات المهينة التي فرضت عليهم في القرن التاسع عشر أخبرتهم بأنهم لم يكونوا كذلك. كانت أوروبة متفوقة عليهم لأنها استخدمت التقانة الحديثة والأسلحة الحديثة، وهكذا كان على الصين أن تتعلم شيئاً ما من ذلك إذا كان لها أن تتجنب أن يتم تقسيمها تقسيماً كاملاً. في العام 1905 ألغى الصينيون نظام الامتحانات الكونفوشيوسية المهمة للغاية، الذي كان قد أعطى الإمبراطور وموظفيه شرعيتهم طوال ألفي عام، وبعدئذٍ، في العام 1912، أطيح كل النظام الإمبراطوري نفسه.

والآن، إذا كنت تقوم لأول مرة بتحديد خط على الخريطة لتظهر أين تبدأ أمتك الدولة وأين تنتهي، فإن عليك أن تقرر ماذا تفعل بأولئك الناس الذين كنت قد عقدت معهم دائماً علاقة غامضة. هل هم في الداخل أم في الخارج؟ وهم طبعاً، بالنسبة إلى أي حاكم في بكين، فإن عليهم أن يكونوا في الداخل. لا يمكن أن يكون هناك المزيد من التردد والخداع بشأن من هو الذي كان صينياً؟ ومن هو الذي لم يكن؟ والسيطرة الصينية على التيبت وتركستان من القرن الثامن عشر إلى 1912 كانت في أماكن عديدة سيطرة اسمية فقط، وبعد العام 1912، كما سبق أن رأينا، انهارت الصين ولم تكن قادرة على فرض سيطرتها على الغرب قط. ولكن بعد مدة قليلة من قهر الشيوعيين للصين الشرقية، في العام 1949، انطلقوا في نقل قوات إلى التيبت وإلى الشمال الغربي الإسلامي كي يرسموا حدودهم، على الأسلوب الغربي، حيث كان الشعور يسود بأنهم وجدوا تحت أسرة شينغ الأخيرة، التي حكمت من 1644 إلى 1912. وكانت هذه هي العلامة النهائية على تحول الصين من عالم خاص بها إلى أمة دولة واحدة من عديدين. ولكن التحول لم يكن سهلاً وناعماً، والتراث الباقي للصين اليوم هو خليط مضطرب مثل الإمبراطورية القديمة والأمة الدولة الحديثة. إنها أزمة لخصها أفضل تلخيص العالم السياسي من معهد ماساشوستيس للتكنولوجيا وعبقري الصين كلها لوسيان باي، الذي كتب يقول: «إن الصين حضارة تدعي أنها دولة».

أو، لنعبر عن ذلك بطريقة أخرى، الصين هي آخر إمبراطورية كبيرة. فكل الإمبراطوريات الأخرى من القرن التاسع عشر والقرن العشرين، أي، البريطانية والفرنسية، والعثمانية والسوفيتية، قد ذهبت. وإذا وضعنا جانباً للحظة النظرية القائلة إن الولايات المتحدة قد صارت قوة إمبراطورية، فإن الإمبراطورية الصينية آنئذٍ هي التي تبقى، وهي تريد أن تمضي قدماً بوصفها أمة دولة حديثة، ولكنها مثقلة بقيودِ إمبراطورية لا يمكن إمساكها معاً إلا بالقوة فقط. قلة من الشعب الصيني تقر بذلك، ويحتمل أن يختلف معي كثيرون من الذين يقرؤون هذا الكتاب اختلافاً قوياً، وينتقدونني لعواطفي المعادية للصين ولرغبتي في أن تنقسم الأرض الأم. ولكن البيئة التاريخية الموضوعية توحي بأن ذلك صحيح. وإحدى أنجح الأساطير التي رسخها الحزب الشيوعي في عقول شعبه هي أن الصين قد بدت دائماً مثلما هي عليه اليوم. ويتعلم الطلاب ذلك في المدارس. وحين ترجم (تاريخ كيمبردج للصين) إلى اللغة الصينية، تم تغيير خارطة الصين لأسرة مينغ (1368 ــ 1644) من خريطة لا تحتوي على التيبت وعلى تركستان الصينية في النسخة الإنجليزية الأصلية إلى خريطة تحتويهما في النسخة الصينية، وذلك في تناقض مباشر مع الحقيقة التاريخية.

كل هذا التاريخ معلق في الهواء وأنت تقترب من لانجو على طول الطريق 312 من الجنوب الشرقي.

تمسك لانجو بالتمييز المشكوك فيه في كونها واحدة من أكثر مدن العالم تلوثاً، وهو التراث القاتل من محاولات الرئيس ماو في التصنيع في الخمسينيات من 1950 والستينيات من 1960. ويبلغ عدد سكان المدينة 3 ملايين نسمة تقريباً، وهي تمتد على طول ضفاف النهر الأصفر، وتحيط بها الجبال وتعتصرها من الجهات الأربع. والجبال هي سبب واحد للتلوث، لأن ضباب الدخان المنبعث من المصانع لا يستطيع أن يهرب. في التسعينيات 1990، كان هناك خطط لتصحيح هذا الوضع عن طريق نسف فجوة ضخمة في إحدى سلاسل الجبال لتسريب التلوث، ولكن ذلك المخطط على ما يبدو لم يصل إلى شيء. بالنسبة إلى الحكومات المحلية في الصين، كما هو الحال في معظم البلدان، يوجد من الفوائد في صرف المال على صناعة جديدة (وظائف،

وضرائب، واستقرار اجتماعي، ورفاهية معتدلة) أكثر مما يوجد من الفوائد في صرف المال لمعالجة العواقب السلبية الناجمة عن الصناعة.

والمدينة نفسها، كما يبدو لي، قد شُنّع عليها كثيراً جداً. وهناك جسارة سارة بشأنها، إذا كنت تحب الجسارة (وأنا أحبها). وطالما أن بطانة مجاري قصباتك الهوائية ليست مطلوبة للتفاعل مع ما يسمى هواء المدينة لمدة طويلة جداً، فإن من المحتمل أنك سوف تستمتع بلانجو، تستمتع بجوها وهو جو البلدة الحدودية، وببارات المعكرونة الطويلة العظيمة، وبالخليط العرقي. ولكنني سأتخيل أقسام الجهاز التنفسي من مستشفيات المدينة مثل مناطق حرب.

الجبال المحيطة بلاجو بنية مثل النهر الأصفر، وهو ما يتحدى اسمه، وهو يتلوى، محملاً بالطمي، عبر قلب المدينة تماماً. ربما كان هو لون الجبال أو منظر الوجوه المسلمة أو التيبيتية في الشوارع، ولكنك حين تكون هنا، فإنك دائماً تملك شعوراً في خلف ذهنك وهو أنه يوجد شيء ما مختلف هناك، يكمن وراء تلك الجبال. وطبعاً هناك شيء.

ما يوجد هناك معروف بطريقة ملطفة في الكلام الصينية باسم المناطق الغربية. وهي مكونة من الهضبة التبتيبة كلها إلى الجنوب الغربي، ومقاطعة (Qinghai) تشينغ هاي المفتوحة انفتاحاً كاملاً إلى الغرب، وهي امتداد طويل، ضيق من مقاطعة غانسو (التي تعتبر لانجو عاصمتها)، وأخيراً منطقة شينكيانغ إلى الشمال الغربي، التي أتوجه إليها الآن. وبعد لانجو مباشرة، تبدأ صحراء غوبي، ولا تنتهي إلى زمن طويل جداً جداً.

في الليلة الماضية فقط، حين قرأت الكتاب الإرشادي حول مقاطعة غانسو في غرفتي في الفندق، كنت قد أدركت بالضبط كم كنت قريباً إلى الهضبة التيبيتية. لم أكن قد خططت للقيام بتحويل نحو الجنوب، ولكنني حين نظرت إلى الخريطة، بدت لي فرصة أفضل من أن تفوت. وشياهو، وهي على حافة الهضبة التيبيتية تماماً، تبعد 170 ميلاً جنوب غرب لانجو، وهي بلدة الدير الرئيسي خارج العاصمة التيبيتية

لاسا. وقد زار شياهو عدة أصدقاء من بكين وأخبروني كم هي رائعة، وهكذا غيرت خططي وفي الصباح التالي ركبت حافلة ركاب إلى الجنوب خارجاً من لانجو.

إذا كنت تريد خارطة طريق دقيقة للصين، فيجب عليك أن تذهب مباشرة إلى دار نشر وتمزقها من المطبعة. بل إنها حينئذٍ ستكون قديمة التاريخ. فسرعة بناء الطرق غير عادية ونوعية الطرق الجديدة مدهشة.

والطريق إلى الجنوب طريق سريع من أربعة مسارات، وهو طريق لم أتوقعه لا أنا ولا خارطتي، وهو شريط لامع من الزفت الأسود والحواجز الفولاذية التي تشكل مساره عبر الأرض شبه الصحراوية الصفراء خارج لانجو. وهنا يبدأ صراع الإنسان ضد الطبيعة يشتد، والعديد من جوانب التلال مدرجة كالشرفات، تسمح للناس المحليين على الأقل أن يحاولوا أن يعتصروا بعض الخصوبة من الأرض الصفراء الممانعة.

مسجل قرص الفيديو الرقمي (دي في دي) الموجود في حافلة الركاب يضخ أغاني وطنية مع صور رجال ونساء لابسين بدلات عمل جيش التحرير الشعبي في الخمسينيات من 1950. ويبدو أنها تعلم أبناء الأقليات عن مباهج كونهم صينيين. هناك أغنية واحدة عن المنغوليين، ثم واحدة عن هضبة التيبت. وكلمات الأغنيتين مكتوبة على طول أسفل الشاشة بشكل مساعد في حالة أراد أي واحد المشاركة.

مسجل قرص الفيديو الرقمي يعمل بصوت عال يعلو عدة مئات من الديسابلات فوق المستوى المسموح به في مصانع الصناعة الثقيلة في الولايات المتحدة. على الرغم من أنني لم أدرك ذلك في البداية. وإنما أدركت ذلك فقط حين انحنى طفل في المقعد الواقع خلفي فوق ظهر المسند الذي يليني وبدأ يغني، أدركت كيف أنني، ومع مرور الوقت، صرت مطعماً ضد الضجة الصينية. هذا هو نوع الشيء الذي كان يغيظني في العادة. «ماذا تفعل، أيها الولد، تنفخ اللحن النشاز في أذني؟ وماذا يفعل هذا السائق وهو يشغل مسجل تلك الموسيقى بصوت عال جداً في المقام الأول؟» والآن، أنا أذهل نفسي بالتبسم أيضاً في تشجيع للولد، وكأنني أعتقد أن الإعوال النشاز في أذني بإيقاع لا معنى له هو شيء جميل لا غير.

الصين تفعل ذلك بك. فأنت تعود إلى الولايات المتحدة أو إلى أوروبة، والناس يعجبون لماذا لا تقفز إلى الأعلى والأسفل انزعاجاً من بعض الضجة الصغيرة أو الإزعاج، وأنت تنظر إليهم، وتفكر، ما هي مشكلتكم؟ فنحن نملك عتبات منخفضة جداً من الإزعاج في عالمنا الغربي المريح. (والخطر هو أنك، مع ذلك، تنسى أيضاً أن تتلاءم مع الطرق الغربية، لِنَقُل، في سلامة الطريق أو آداب المائدة عند العودة إلى وطنك).

وتنساب الطريق على طول نهر صغير لبعض الوقت، وبعدئذٍ ينعطف السائق بعيداً عن الطريق السريع العالي اللمعان ليسوق على طريق ريفي معبد تعبيداً جيداً وينثني ويعود هابطاً تلة قبل النزول إلى الوادي الأخضر من لينشيا. تضم لانجو خليطاً من العرقيات، ولكنها مدينة صينية بشكل ظاهر. وهذا الوادي الصغير، وهو على بعد مائة ميل إلى الجنوب، هو أول واد أمر عبره وهو ليس في الحقيقة من هان الصينية قط. هناك مجتمعات مسلمة صغيرة متفرقة في كل أنحاء الصين بعيداً عن الشرق، وأما هنا، حول لينشيا، فهي تقريباً مسلمة 100 بالمائة. كل قرية تملك مسجداً. وكل الرجال يلبسون طواقي بيضاء إسلامية على رؤوسهم ويُظهرون لحى صغيرة. والنساء يلبسن الإشاربات لتغطية شعورهن. وفجأة لا تشعر أن المكان مثل الصين تماماً. والعديد من مساجد القرى خليط من الأساليب المعمارية، وأقل شبهاً تقليدياً بالمساجد من نظيرتها في الشرق الأوسط ولكنها ليست صينية بقدر ما هو عليه المسجد الرئيسي في شيان، الذي كان قد بني تقريباً مثل معبد قديم وفق الأسلوب الصيني.

يُعرف المسلمون هنا وحول هذا المكان باسم شعب هواي. وكان أجدادهم جنوداً، وتجاراً، وحرفيين جاؤوا إلى الصين من بلاد فارس ومن آسيا الوسطى بين القرنين السابع والثالث عشر. وبعد أن استقروا في الصين، تزاوجوا مع الصينيين الهان وصاروا يتكلمون الصينية (في الوقت الذين يستبقون غالباً بعض اللغة العربية أيضاً). وفي نهاية المطاف صار الهواي مندمجين إلى حد كبير، على الرغم من أنهم استبقوا دينهم الإسلامي وهم إلى هذا اليوم لا يأكلون لحم الخنزير. والعلاقات بين الصينيين الهان وبين الهواي أفضل بكثير من علاقات الهان مع جماعات إسلامية

أخرى في شمال غرب الصين، مثل الويغور، ولكن وعلى الرغم من اندماج الهواي، فإن دينهم يضع فجوة كبيرة بينهم وبين الهان. وهناك بين الحين والآخر انفجارات غاضبة من التوتر العرقي، وهي عادة بسبب إهانة دينية ما أو قضية صغيرة تتصل بالطعام أو بالممارسة الدينية. وتتحرك الدولة دائماً بسرعة لتقضي على هذه الحوادث، وكل الأطراف يعرفون أن القليل هو ما يستطيعون تحقيقه بالمزيد من النزاع، ولذلك فالناس من جميع العرقيات يميلون إلى الاحتكاك قدماً جنباً إلى جنب.

أغير حافلة الركاب في لينشيا، وهي أيضاً تملك الشعور ببلدة حدودية، فالمتاجر مملوءة بالخناجر والسروج وفراء الحيوانات. وحافلة الركاب إلى شياهو مزدحمة وخشنة ومليئة بالدخان. إنها نموذج أرخص بكثير من النموذج السابق، وهذه أخبار طيبة، لأن القاعدة العامة حين تسافر في الصين هي أنه كلما كانت الحافلة أرخص، كان الناس أكثر مودة. وكان يوجد بعض المقاعد نحو خلف الحافلة، وهكذا أتسلق بصعوبة فوق الأرجل والحقائب لأصل إلى مقعد. معظم الناس في حافلة الركاب هذه تيبيتيون. والرجل الذي أجلس إلى جانبه، يقول بلغة ماندرينية غير مفهومة تقريباً إنه من مجموعة أقلية لم أكن قد سمعت بها مجرد سماع من قبل، وهي من أصغر المجموعات في الصين، وتسمى دونغشيانغ.

يوجد ست وخمسون جماعة من جماعات الأقليات العرقية المختلفة داخل حدود الجمهورية الشعبية معترف بها رسمياً، وما يقارب أربع مئة جماعة غير معترف بها. والحكومة في بكين تقول إنهم جميعاً «شعب المملكة الوسطى،»شعب صيني. ولكنك لو سألتهم، فإن ولاءهم الأول يكون عادة لجماعتهم العرقية. ويوجد 300,000 دونغشيانغ نسمة في كل العالم، وجميعهم يعيشون حول لينشيا. وهم مسلمون، ولكنهم يعودون بأصولهم إلى المنغول، حين اجتاح جنكيز خان المنطقة حتى وصل هنا في القرن الثالث عشر.

وأسأل هذا الرجل من الدونغشيانغ، «هل لكم لغتكم الخاصة؟ وهل لكم حرفكم الخاص «وهو يجيب»، لنا لغتنا الخاصة، ولكنها غير مكتوبة. إنها تشبه اللغة المنغولية. ولكنني لا أستطيع القراءة على أي حال، ولذلك فهذا لا يشكل أي اختلاف». يقول الرجل ذلك مع ابتسامة.

وقبل أن تغادر حافلة الركاب بقليل تماماً، دخلت امرأتان صينيتان من الهان تلبسان لباساً فاتناً نوعاً ما. وكنت قد رأيتهما على حافلة الركاب من لانجو. وهما تريان مقعدين بالقرب مني وتبدأان باعتصار طريقهما، بأسلوب أنثوي جداً واع للذات، إلى المقاعد الخلفية من الحافلة. وهما تذكرانني بجاك ليمون وطوني كيرتس وهما يركبان القطار لابسين ملابس الجنس الآخر في فيلم (بعضهم يحبونها ساخنة).

وكلتا المرأتين تبدو من خارج المكان أكثر مما أبدو أنا، وهما تدفعان حقيبتيهما المتماثلتين الزهريتين المروعتين اللتين تستخدمان للرحلات القصيرة إلى رف الأمتعة الموجود فوق رؤوس الركاب وتضعانهما بين بطيخة كبيرة وبين كيس قماشي ضخم وخشن ومليء بما لا أعلم. وبالتأكيد فهاتان الحقيبتان هما أول حقيبتين زهريتين مروعتين مستخدمتين لرحلة قصيرة سبق في أي وقت أن شرفتا هذا الرف على وجه الخصوص الموجود فوق الرؤوس. وتتسلق الاثنتان إلى آخر صف من المقاعد، على امتداد خط قُطْر الحافلة خلفي، وتمسحان المقعدين القذرين قبل أن تجلسا عليهما.

صغراهما تلبس كلها لباساً أبيض، وهو اختيار غريب من الثياب للسفر في هذا الجزء من الصين، ولها شعر قصير مجعد مصبوغ قليلاً، وتضع على عينها ما هو أشد اجتذاباً للانتباه، وهو نظارات ذات إطار زهري لامع ولها عمودان جانبيان سميكان مرصعان بماس زجاجي زائف.

أما صديقتها فلها منظر المرأة الأشد إغواء وفتنة. وهي تلبس لباساً أسود كاملاً، مثل بعض النساء على شكل الممثل غاري كوبر وهو يركب حصانه خارجاً ليخضع الحدود الغربية. لباس نصفها العلوي الأسود اللامع المصنوع من البوليستر تتعلق فيه أقراص لامعة صغيرة من الخصر، وبنطالها المتلائم فيه نفس الأقراص اللامعة معلقة من حول كاحليها. وعلى شعرها خطوط ضئيلة من الصباغ البني. وتبدو كلتا المرأتين مضحكة تقريباً، في آخر مقاعد هذه الحافلة القذرة، وهما معتصرتان بين الفلاحين التيبيتيين.

وحالما استقرتا في مقعديهما، تثرثران بلغة مندرين نقية جداً خلفي، فتحت المرأة المغوية علبة من مناديل مسح الأطفال وقامت بمسح وجهها على نحو مستفز جداً.

وهي تعرض منديلاً على صديقتها، التي تمسح يديها بحركة ملكية، ثم ترمي المنديل المستعمل على أرض الحافلة الوسخة من قبل ذلك.

وتقول المرأة المغوية بصوت كالزعيق، «إإإوه. هذه الحافلة وسخة جداً».

وتومئ الأميرة الزهرية بالموافقة. ويبدأان بإرسال رسائل نصية في هاتفيهما الخليويين الخياليين.

في الخارج، تمر البيوت الطينية وتصدر السيارة أزيزاً وهي تمر إلى جانب لوحات إعلانات تروج للرفاهية المعتدلة. وهي هدف موجود في كل مكان ولكنه هدف مراوغ. وإعلانات أخرى تعرض القرن الواحد والعشرين للمزارعين من مقاطعة غانسو الجنوبية:

الموجة العريضة تغير حياتك

إذا كنت ستحضر الاختراعات المغيرة للحياة إلى هذا الجزء من البلاد، فقد يكون هذا الجزء مكاناً أفضل للشروع بنوع ما من المكننة الزراعية الأساسية.

يجري توسيع الطريق بين لينشيا وشياهو، ربما توقعاً لمجيء المزيد من السياح، ويتوجب على حافلة الركاب مراراً أن تنتقل لتسير على امتداد من مسار وسخ غير مستو إلى جانب الطريق. والاصطدام والارتجاج على المسار الوسخ يتسبب في أن تقع البطيخة الكبيرة الموجودة في رف الأمتعة على رأس طفل. وأطلق الطفل صرخة ولكن يبدو أنه لم يصب بأذى خطير. لم يغضب أحد. ولم يهدد أحد برفع قضية. وسقوط البطيخات هو مجرد خطر مهني للسفر في الصين.

وأخيراً أقرر أن أعقد محادثة مع الأميرتين الجالستين خلفي، مستشعراً الحرج نوعاً ما من حالتي الوسخة نوعا ما.

وتجيب الأميرة الزهرية على سؤالي: «نحن ذاهبتان إلى شياهو».

«كم المدة التي ستبقيانها؟»

«ربما ليلة واحدة فقط، ثم نتابع متوجهتن إلى هيزيو».

«هل أنتما في إجازة؟»

وتقول المرأة المغوية، «نوع من الإجازة، ولكن مع العمل أيضاً».

«ما نوع العمل الذي تعملانه؟»

«أدوات الزينة».

ويظهر أن المرأتين تعملان لدى شركة تجميل في شنغهاي تسمى ميسو، التي افتتحت لها هذا العام فرعاً في لانجوولها الآن أيضاً مخازن في كل من شياهو وهيزيو، العاصمة الإقليمية لغانسو الجنوبية. والمرأتان مبعوثتان لأدوات الزينة.

وتقول الأميرة الزهرية مع ابتسامة، «حيثما توجد نساء، توجد ميسو. ذلك هو شعارنا».

وأسأل، «وإذاً هل هناك سوق بين التبتيات

وتقول، «لا، إنهن الصينيات الهان اللواتي يشترين أدوات الزينة. والناس من الأقليات غير مهتمين بالحقيقة بذلك النوع من الأشياء».

«وماذا تبيع متاجركم؟ مجرد أحمر الشفاه وحمرة خدود والمادة المعتادة؟»

«نعم، ولكن معها الكثير من الكريم المبيض للبشرة، لتجعل جلدك أقرب إلى البياض في سحنته. فنحن نكره الجلد الأسود».

وأخبرها كيف أن النساء الغربيات يشترين كريم اسمرار البشرة من الشمس ليجعلن جلودهن تبدو أغمق لوناً. وتبدو وكأنها صدمت، وهي ليست عابئة بالانتباه إلى أن كل وجه في الحافلة هو إما الجلد الغامق لشخص تيبيتي أو لمسلم من هواي، أو جلد ازداد سواده لمزارع صيني يعمل طوال النهار تحت الشمس.

وتقول المرأة «الجلد الغامق قبيح. الجلد الأبيض جميل».

ثم إنها بالفعل تسأل الشاب التيبيتي الجالس إلى جانبها لماذا يبدو جلده غامقاً جداً.

ويجيب بلطف بلغة مندرين صحيحة، «لا أعرف، نحن مولودون بهذا الشكل».

وتعبر الحافلة من خلال نوع من البوابة الخشبية. هذه هي تومينغيوان، المدخل إلى مقاطعة غانسو الجنوبية. وتصير الأرياف فوراً تقريباً، أكثر خضرة وهناك معابد في القرى وعلى سفوح التلال، وكأننا، في لحظة مفاجئة ما من لحظات أرض نارنيا، قد عبرنا من خلال باب إلى مملكة مختلفة.

وأذكر هذا، والشاب التيبيتي الذي سُئل قبل قليل عن تفاصيله الجلدية دس نفسه وأخذ يتكلم ويجيب، «نحن ندخل غانّان، وهذه منطقة تبتية ذات استقلال ذاتي».

وأساله، «كيف الحياة هنا؟»

«إنها تتحسن نحو الأفضل. هناك المزيد من الاستثمار هنا في هذه الأيام. ويوجد الآن مصنعان هنا. واحد يصنع الدواء، والآخر يصنع الحليب»».

«هل يريد الناس هنا الرفاهية المعتدلة؟ كما هو في شعارات الدولة؟»

ينظر إلي وقد أربكه سؤالي ويجيب، «طبعاً نريد».

وفي الحقيقة أن الأجنبي نفسه الذي عاش زمناً طويلاً في الصين، والذي يعرف أن مسألة التيبيت ليست بسيطة مثلما تُصور أحياناً، ما زال يفترض أن الهوية قد تكون أكثر أهمية من التقدم.

تبين أن الشاب، الذي يقول إن اسمه شاو لين، هو مدرس عائد من تدريب في لانجو إلى بلدته الموطن في مكان أبعد، وراء شياهو.

وأسأله، «ماذا تدرِّس؟»

ويجيب، «الصينية».

وأحملق فيه. «أتدرس الصينية؟ لمن؟»

«الأولاد في مدرسة تيبيتية ثانوية».

«أنت تيبيتي، وتدرس اللغة الصينية إلى أولاد تيبيتيين؟»

ويقول وهو يبتسم، «ذلك صحيح».

وأبحث في وجهه عن علامة يبين بها كيف يشعر نحو هذا الأمر. ولكنه لا يكشف الكثير، ويجلس كما هو بجانب امرأتين من الصينيين الهان جداً، ولكنه يعطيني ابتسامة باهتة، وهو يرمي لي رقم هاتفه الخليوي الجوال بناء على طلبي. وفي الوقت الذي كان يعطيني الرقم، يرفع حاجبيه وكأنه يقول، هاتِفْني وسأخبرك بالمزيد.

ويقول شاو لين إنه يغادر حافلة الركاب قبل شياهو ليرى صديقاً له. ويكرر القول إني يجب أن أهاتفه. وأقول له سأفعل، ويقفز بعيداً، وهو تيبيتي حديث المظهر نوعاً ما في بحر من المزارعين.

يوجد المزيد من الشعارات في كل أنحاء المكان، وهي مدهونة في الغالب على جدران من الآجر البسيط أو من الطين على جانب الطريق. وقد قامت إدارة تخطيط الأسرة هنا بالفعل بحساب كميات المنفعة المالية الناتجة عن عدم إنجاب الكثير جداً من الأطفال، على الرغم من أن الأمر غير واضح إن كانت هذه التكلفة هي نتيجة فرض الغرامة على إنجاب العديد جداً من الأطفال أو هي تكلفة تنشئة طفل إضافي. كثيرون من الفلاحين هنا يكسبون ما يقارب ألف يوان فقط في العام من الأرض.

طفل واحد أقل سوف يوفر لك 3000 ــ 4000 يوان (400 ــ 600$)

وهناك دعاية أخرى أيضاً، تشجع وتحذر.

سرّعوا بناء الطرق. سرّعوا تطوير الغرب

لا يوجد نحاس في الكابلات الموجودة على جانب الطريق

اللصوص سيعاقبون عقاباً قاسياً

ولكن معظم لافتات الطريق تركز على موضوع واحد: التعليم. فالمهمة التمدينية للصينيين في الأيام الخوالي كانت نشر ثقافتهم، وبيروقراطيتهم، ونظامهم الكونفوشيوسي للبرابرة. وهناك مازال إحساس بالتفوق نحو الأقليات العرقية من أطراف الصين، ولكن حين رمى الصينيون حضارتهم الخاصة بهم مع وصول شعب

المحيط، تغير بيان مهمتهم نحو شعب آسيا الداخلية أيضاً. والآن، فإن العلم والتقدم هما ما يجلبانه إلى البرابرة الذين يعيشون في الظلام على أطراف الحضارة.

أحيوا الأمة من خلال العلم والتعليم
وأنتم تعملون نحو الرفاهية المعتدلة
التعليم هو أهم الأشياء
والمعرفة قوة